السنة السادسة عشرة	العدد ٣	اذار ١٩١٣

المشرق

عجائب الخلايا في النبات والحيوان

لحضرة الاب اسكندر طوران اليسوعي

اذا عرضتَ على عدسة المجهر صفيحةً رقيقة من مركَّب نباتيّ او قشرةً دقيقة من لحم حيوان رأيت في نسيجها العدد العديد من حبوب ناعمة متلاصقة متراصة تبدو امامك على اشكال شتى. ولو شئتَ لامكنك ان ترى تلك الحبوب في بعض الظروف حيَّةً تقوم باعمال حيويَّة. تلك الحُبَيبات هي الخلايا

وقد ادَّت الاختبارات المتوالية التي باشرها الطبيعيُّون في تراكيب النبات والحيوان الى ان يحكموا في كون المواليد النباتيَّة والحيوانيَّة دون استثناء مركَّبة من الخلايا وان الخليَّة هي العامل الحيويّ في جوهر النبات والحيوان معاً اعني أنها مبدأ تلك العجائب التي تظهر على الارض في كل جسم حيّ. فمهما رأيت في خَلق الحيوان من عظام ولحم وقلب ورئة واحشاء ومعدة وكبد واعصاب وشرايين وفي جرم النبات من خشب وورق واغصان وزهور واثمار فكل تلك الاجسام الآليَّة تتركَّب من هذه الغُدَد الدقيقة المعروفة بالخلايا وهي نتيجة فعلها الحيويّ

امَّا تركيب الخليَّة فيتكوَّن من مادَّة مائعة يدعونها النطفة الاولى او الجرثومة الاصليَّة (protoplasma) تُحدق بهنَةٍ اصفق واكد لوناً يدعونها النواة . وهذه النطفة تلوح لمن يفحصها كالهلام (gélatine) او كبياض البيضة المعروف بالآح ولذلك سمّوها ايضاً بالمادَّة الآحيَّة المكوِّنة. واذا حلَّلتها وجدتها مركَّبةً على الاخص من الكربون والاوكسيجين والهيدروجين والازوت مع بعض آثار معدنيَّة من الفسفور والكبريت والبوتاسيوم والكلسيوم ويمكنك ان تجد ايضاً في بعض الحيوان آثاراً من الحديد واليود

وتركيب الخلية النباتية في النبات الغضّ يشبه تقريباً تركيب الخليَّة الحيوانيَّة فهي ايضاً تتكوَّن من نطفة اصليَّة ونواة. واذا بلغت الخليَّة نموَّها وجدتها كغُدَّة صغيرة تحيط بمادَّتها المائعة جليدة تصونها. والمادَّة المائعة هذه تتركَّب كما في الحيوان من الكربون والاوكسيجين والهيدروجين والازوت . ولكن تمتاز عن الحيوان بما يُرى فيها من البزور الدقيقة التي يؤثّر في بعضها النور الشمسي فتتكيَّف بمادَّة ملوَّنة يدعونها الكلوروفيل (chlorophylle) والبعض الآخر يتولَّد منهُ النشا (amidon)

فهذه المعلومات الابتدائيَّة عن الخليَّة وتركيبها تمهد لكلامنا الطريق عن عجائب الخلايا سواء كانت نباتيَّة او حيوانيَّة. وها نحن نباشر بالاولى

١ الخلايا النباتيَّة

لو عمدنا الى نباتٍ ما فحلّلنا اجزاءهُ التي يتركب منها حتى اقصاها كما يُحلّل نسيج الصوف او قُرصة القطن نُتفاً دقيقة لوجدنا الخلية في آخر تحليلنا . فورق النبات وزهرهُ وبزرهُ وثمرهُ وقشرهُ وخشبهُ كلّ ذلك مجموعٌ من الخلايا ولا فرق بين جبابرة الاشجار كارز لبنان وادقّ الاعشاب فان خلاياها كلها لا تكاد تختلف بعضها عن البعض الآخر في ايّ نباتٍ كان وفي كل اقسام النبات فترى فيها تلك العُدَد الشفَّافة في عدد أُلوف الالوف بل ربوات الوف الالوف ممَّا لا يفي به احصاء. ومنها تتكوَّن الاشجار العاديَّة التي تزين كُرتنا كالحشائش الدقيقة التي تطأها اقدام.

وهذه الخلايا ان وُجدت في احوال ملائمة لطبعها واصابت تربة وحرارة ورطوبة توافقها تحرَّزت للعمل فتراها تنتفخ فتتقسَّم فتتفرَّع فيلتحم بعضها بالبعض في سرعة غريبة. وقد احصى احد النباتيين معدَّل الخلايا التي تتكوَّن في ورقة من نبات اللوبيا. في طور نشوِّها فاذا هي تبلغ في الساعة الفي خليَّة وهذه الخلايا تتَّسق وتنتظم انتظاماً تامَّاً وفي كل خليَّة بزورها الخاصَّة التي يعمل فيها ضياء النور فيلوِّنها الواناً متباينة من اخضر واصفر فاقع او فاتح الخ. وقد اثبت احد كبار النباتيين انهُ رأى فطرًا نما في ليلة واحدة فصار حجمهُ كحجم القرعة بعد ان كان لا يتجاوز حجم

البندقة. ولم يبلغ هذا النموّ الغريب الّا بتوفّر خلاياه التي بلغ عددها في تلك الليلة ١٧ مليارًا او في الدقيقة الواحدة ١٦ مليونًا من الخلايا وهو لعمري عددٌ تحير منهُ اذهان كل المتبحرين

فليت شعري من اين للخلية تلك القوّة النامية؟ انّما قوّتها في نفسها فهي هي مركز تلك الحياة العاملة. نعم انّها تمتصّ من التربة رطوبتها وعناصرها المختلفة وتستمدُّ من الهواء بخاره وحرارتهُ ونورهُ وحامضهُ الكربونيّ لكنّها هي العاملة في تلك المواد لتحوّلها الى خلايا نباتيّة جديدة

قلنا انّ الخلايا غُدَدًا وتلك الغدد كشبه اكياس صغيرة تحتوي على المادّة الآحيّة او النطفة الاصليّة. فترى ما هي تلك الغُدَد؟ وما هي منافعها؟

اسمع ما كتبهُ في ذلك احد ائمّة الطبيعيين السيو فابر (Fabre) في كتابهِ المعنون بالنبات (La Plante, p. 32) فانّهُ قد وصف تلك الغدد وصفًا محسوسًا يقرّبهُ الى عقول جميع القرّاء حتى الاحداث مع دقّته وضبطه العلميّ. قال:

« أترى في الازقّة والشوارع هذه الاخلاق الرثّة التي تطأها ارجل السابلة. فاكثرها يعلوها الوسخ وتشينها الاقذار. فاذا جمع الجامع هذه الخرق يفرزها طالبًا فنها ما يختارهُ ليصنع منهُ ورقًا ناعمًا ومنها ما يعدّهُ للورق الصفيق الخشن. ثم تُلقى تلك الخرق في اجران فتُغسل غسلًا شديدًا فاذا نُظفت من ادرانها تسلّطت عليها مخاليب الفولاذ المسنّنة فمزّقتها وقطّعتها قطعًا دقيقة ثم تناولتها دواليب أُخر فسحقتها ونشّتها وجعلتها في الماء على شبه المعجون (البالوظة) وانّما تبقى كمدة اللون فلا بُدَّ من قصرها لتبيضّ فيلقون فيها العقاقير التي تعمل فيها فتحوّل ذلك اللون الى لون ابيض يقق كانّهُ الثلج بياضًا. ثم تتخللها ادوات أُخر تبسط ذلك المعجون فتدور عليهِ الاساطين فنها ما يرقّقهُ ومنها ما يصقلهُ الى ان يصير ورقًا تامّ الاهبة

« فهذا الورق كان قبلًا خرقةً قذرة وكانت الخرقة قطعةً من نسيج بالٍ. وهذا النسيج قبل ان يُلقى على المزابل كانت قد توالت عليهِ الاعمال فكم من مرّةٍ بعد حياكتهِ ولبسهِ رُحض في المياه الحارّة وقرّضهُ رمادُ الاشنان ونفذ فيهِ غسول الصابون وكم قُصر بالمقاصر وعُرض على الشمس والهواء والانواء. فيا لله ما هي تلك المادّة الغريبة التي لا تقوى عليها اشدّ عوامل الزمان التي تبقى في كمالها رغمًا عن الفساد

والاقذار التي تنبت تحت مطارق اعظم الادوات وتخرج آخرًا من كلّ هذه المحن تامّة المرونة ناصعة البياض فتصير في ايدي الكتبة قرطاساً بديعاً صقيلاً معدًّا لأن يكون نجيّ افكارنا ومستودع اسرارنا

« اعلم رعاك الله انّ مادّة هذا الورق انّما هي تلك الغُدَد النباتيّة التي قلنا عنها أنها كنشا. الخلايا وهي داخلة في تركيب الالياف وبقيّة اقسام النبات وقد دعوها بالمادّة الخلويّة (cellulose) لأنها في الاصل تجاويف تتضمّن النطفة الاصليّة وما يعوم فيها من البزور. فشاقة القطن والكتّان تتركب من هذه المادّة مع اختلاط بعض الاجسام الغريبة فهي كخام الحرير تُنسج في المعامل فتُتّخذ للملابس واذا بليت تلك الاثواب حوّلوا الخلايا الى ورق كتابي بعد نزع كلّ الاجسام الغريبة عنها بحيث يجوز القول انّ الورق هو محصول تلك القشرة الخفيفة او التجاويف الرقيقة التي تضمّ الخلايا النباتيّة »

على انّ هذه الخلايا وان كانت مادّتها واحدة ليست على نمط واحد فربّما غيّرت هيئتها الاصليّة الكرويّة فتارةً تصير مستطيلة الشكل وتارةً تنتظم اسلاكاً وتنفتح اطرافها فتصير على شبه القني المتواصلة والقساطل الملتحمة تجري فيها رطوبة التربة وتنتقل فيها المائيّة من جذورها السُفلى الى اطراف اغصانها فتلك شرايين النبات ومنها ما ينفلق عموديًّا فتتركب عليها مادّة اصلب بحيث لا تعود تصلح لتنمية النبات ولا تجري فيها المائيّة المحيية لكنها تفيد الشجرة بصلابتها اذ تصونها من آفات الجوّ واذى الحيوان وتجديها قوّةً وثباتاً كما ترى في قشرة الشجر وأليافه

فهذا ما يختصّ بتجاويف النبات وغُدَدِه . فدعنا الآن ننظر ما تحتويه تلك الغُدد. سبق القول أنها تشتمل على قليل من المائع الآحيّ الذي يمكن تحليلهُ الى اربعة عناصر خاصّة وهي الكربون والاوكسيجين والهدروجين والازوت مع بعض آثار من مركّبات معدنيّة. على انّ هذه العناصر وان كانت قليلة يمكنها بفعل الخليّة ان يتألّف منها مركّبات عديدة متباينة تختلف ذوقاً ولوناً وشكلاً حتى يقضي الانسان العجب من وفرة استحالاتها ومحصولاتها

ألا اعتبر قطعةً واسعة من التربة كيف تأتي بزروعات شتى مع انّ التربة واحدة ومياه الريّ واحدة والفلاحة واحدة وسماد الارض واحد. فالبزور التي في غُدَد الخلايا

هي التي تصنع هذه العجائب فتمتص كلُّ خليَّة منها ما يلائمها. فالورد يستمدُّ منها اوراقهُ واشواكهُ وازهارهُ ذات الحمرة الدمويَّة والارجوانيَّة والقرمزيَّة والقانئة فضلًا عن رائحته الذكيَّة. والزنبق يلتمس منها زهرتهُ البيضاء ورائحتهُ الخاصَّ بهِ. وقس عليهِ بقيَّة الزهور من صفراء وزرقاء وخضراء مع اختلاف عجيب في اللون الواحد ممَّا تعجزهُ العين وتتمتَّع بهِ ويقصر اللسان عن نعتهِ

ولو انتقلنا من الازهار الى ذكر الاثمار لزاد عجبنا فالعنب قبل نضوجهِ حامض الطعم ثم يصبح حلوًا كالعسل. وكم من طعم لذيذ في الخوخ والاجاص والكمثرى والقراصيا والشاه بلوط واللوز والموز والليمون فلا ترى ثمرتين طعماً واحدًا وعبيرًا واحدًا. فأحص بعد ذلك كل اشكال النجوم (صغار النبات) والنبات والاشجار التي تضيق عن اسمائها اكبر المعاجم واوسع الكتب. فمن هو العامل لهذه عجائب المخلوقات. انَّما هو الخليَّة وما خزنهُ الله في قلبها من عناصر الحياة

فتلك الخليَّة الدقيقة التي لا تُرى الّا بالمجهرات الكبيرة عند انفصالها من الخليَّة الام ترث منها شيئاً حيًّا ندعوهُ بزرةً فهذه البزرة تجد في باطن غذائها غذاء تتناله من ذاك الآح الذي هي عائمةٌ فيهِ حتى اذا وُجدت الخليَّة في الشروط اللازمة من رطوبة وحرارة اندفعت للعمل ثم مدَّت في الارض عروقها اللطيفة فامتصَّت منها غذاء جديدًا ثم ذرَّت اوراقها الدقيقة فوق الارض فحلَّلت عناصر الهواء لتغتذي ايضاً من اوكسجينهِ وهيدروجينهِ وازوتهِ حتى اذا نمت وبلغت اشدَّها هي ايضاً بنسلها الشبيه بها فان كانت قرطاً اولدت قرطاً وان كانت حنطة اتت بحنطة او ارزة خلفت ارزةً. فيا لله ما اعجب صنيع الخليَّة وما اعظم فعل البزرة التي في قلبها

قلنا ان تلك البزرة تعوم في مائع. وذاك المائع يختلف ايَّ اختلاف ففي بعض الخلايا لا يكون الّا الهواء. وفي غيرها لا يكاد المائع يختلف عن الماء الصافي. ويوجد خلايا تحتوي صبغاً من الراتينج كخلايا الصنوبر وغيرها تشتمل على ضروب الصمغ كالقراصيا تجد في خلايا الحصرم عصيرًا حامضاً وفي خلايا التين لبناً حرّيفاً وفي خلايا قصب السكّر شراباً حلوًا كالعسل وفي خلايا القلقاس والبطاطا دقيقاً ناعماً. هذه تخزن في خلاياها طيباً عطريًّا كقشرة الليمون. وتلك قطراتٍ من الزيت كالزيتون والجوز واللوز. ومنها ما أودعهُ نشاءً كبعض الفطور والشركلن او اذخر ذرّاتٍ خضراء

ومواد تلوّن بكل الالوان الاوراقَ والزهور ويُطلعنا المجهر في نيرها على تَبلّورات دقيقة كالإبَر الناعمة في هيئات شتى وصور عجيبة. وكل هذه الموادّ التي لا يفني بها احصاء. لا يستمدّها النبات من الخارج وانّما يصطنعها في معمله الباطني ويفرزها مع المائيّة التي تجري في عروقه. فأنعم بالنبات عاملاً قديراً حاذقاً يصطنع بالقوّة الودعة في ذاته الحلويات والحوامض والزيوت والعطريات الاطعمة والسموم. وكل ذلك من فعل الخلايا النباتيّة (١

وان قلت انّ الانسان يجاري النباتات في عملها ويأتي بما تأتيه بتركياتها الكيميويّة. أجبنا أُجل له ذلك ولكن شتّان بين عمله وعملها. انظر مثلاً كيف يصطنع الانسان المادّة السكّريّة (glucose) فانّه بواسطة ادوات قويّة وعوامل شديدة يحوّل لباب القمح والذرة والبطاطا الى نشأ ويستحضر من النشأ تلك المادّة السكّريّة التي تشبه العسل بحلاوتها وانّما يبلغ غايته بالكدّ والسهر. امّا النبات فيدرك الغاية نفسها باللين والهدوء بل يحسّن ما لا يحسّنه الانسان مع كل ادواته التي يتوسّل بها فالنبات يستحضر بخلاياه لباب البِزْر ودسم الغلّات وهو الذي يحوّل النشأ الذي يحيط بحبّة القمح الى مادّة حلوة حليبيّة يستخدمها لانشاء اوّل غذاءٍ وخلاياه الحيويّة

وخلاصة القول ان فعل النبات اعظم واوسع واعجب من فعل الانسان وليس له في اصطناع تلك المحصولات المتنوّعة الّا وسائل قليلة العدد يكشفها التحليل الكيميويّ اعني الكربون والاوكسيجين والهيدروجين والازوت وآثار من بعض المعادن. وانّما يعمل فيها عامل واحد وهو الخلية الحيّة

ولمّا عاين الطبيعيّون هذا العامل الطبيعي سعوا بعد تحليله بتقليده وأمل بعض الماديين انهم اذا ركّبوه كما هو في الطبيعة اتّخذوه عاملاً كالخلايا النباتيّة لينوب منها. ولكن ساء ظنّهم فانّهم حسبوا التركيب الكيميويّ الذي يستحضر مركّبات النبات يمكنه ان يستغني عن مبدأ الحياة العامل فيها. فخاب املهم لانّ الحياة ليست نتيجة التركيب والتحليل وانّما هي احدى هبات الخالق التي لا يستطيع الانسان ان يقلّدها

١) اطلب كتاب المسيو فابر في النبات (Fabre: *La Plante*, p. 33)

هذا وليست العجائب الطبيعيَّة التي تجترحها الخلايا النباتيَّة محصورةً في المواليد العظيمة التي نراها بازائنا في كل حين لاسيا جبابرة الاشجار والاغراس المثمرة والزهور وما شاكلها وانَّما لها اعمال عديدة لا يكاد يبصرُ الانسان بعزها فانَّ في عالم الكون عدد لا يحصى من النجوم الدقيقة وصغار النباتات التي لا تُعرف غالباً الّا بالنظَّارات والمجاهر فلها ايضاً حياتها الخاصة التي تقوم بها خليَّة واحدة فيها او خلايا معدودة ومن يتتبَّع اعمالها يجدها آخذةً بمجامع القلوب. وربَّما كانت هذه الخلايا اشدَّ قوَّةً واثبت حياةً من الاشجار الكبيرة فهي تحيا حيث لا يستطيع نبات غيرها ان يصبر وينبت حيًّا

فمن ذلك نجمٌ غاية في الدقَّة اسمهُ في لسان العلم بروتوكوكس (Protococcus) وهو عبارة عن بزرة ناعمة ذات خليَّة واحدة. فهذا النجم لا يحيا الّا فوق اشمخ الاطواد ووسط الثلوج الغرَّاء. فتجدهُ في قمم جبال الالب وفي جوار القطبين حيث لا يعيش حي من حيوان او نبات فاذا غرَّتهُ الثلوج زكا ونما وتكاثر ولوَّن الثلج حوله بلون احمر ورديّ. واذا نضج بذر البذور العديدة ثم انفقع والقى تلك البذور في الفضاء فينقلها الريح الى جهات اخرى فتنبت

والحقّ يقال انَّ الطبيعة لم تدع نقطةً من ارضنا دون ان تتبرَّع عليها بمراهب الحياة. فلو اعتبرنا الصخور الصمَّاء والنواور والحجارة المصهورة والمستنقعات الآجنة وقشور الاشجار العاديَّة المتفتّتة والاثار الفاسدة وبقايا النباتات والحيوانات المستولي عليها الفساد لوجدنا فيها كلها عدداً وافراً من تلك الكائنات الحيَّة والذرَّات العامة تبدو للعيان على اشكال مختلفة تارةً كالطحلب على وجه المياه. وتارةً كالأشنة على ألياف الشجر العتيق او الحيطان المتهدّمة. وحيناً كعفونات وبُقع بيضاء على الخبز المتعفّن او كخمورات على وجه بعض المشروبات او جُليدات نباتيَّة ترافق كلّ النجاسات والقاذر. فان تلك حُيَيْوِيَّات تتناسل وتتوالد ولا يعيرها الانسان بالاً وربَّما تقذَّر منها لكنَّها تأتي باعمال غاية في النفع وتخدم الانسان خدماً جليلة فانَّها اذا نبتت في الصخور فتَّتتها وحوَّلتها الى تربة ناعمة واذا علت الاوساخ نزعت عنها

موادّها الفاسدة واعادتها صالحةً لخدمة البشر بتحويلات متتابعة بحيث تدخل في الكائنات النامية ودولاب الكون فتتجدّد وتستأنف سيرها

دونك مثلاً قريباً: انظر هذه الشجرة التي اقتلعتها الريح فرمتها على الارض. فللحال ينشأ فوق جثتها عدد لا يُحصى من النباتات الصغرى التي ذكرناها كالطحالب والفطور والأُشن تتغذى منها ويساعدها في فعلها ملايين من الحشرات فضلاً عن تأثير الانواء فيها وكل هذه العوامل لا تزال تقطّع الصخرة اليابسة وتنخرها وتفتّتها حتى تعود بعد ردحة من الدهر تراباً يصلح ثانيةً للزراعة والفلاحة وتقوم بدلاً منها اشجار حيّة عوضاً عن الميتة (١

وان سأل القارئ ومن اين اتت تلك الخلايا التي تقاطرت الى الشجرة الميتة اجبنا انها نجمت من خلايا أُخر تطاير بها الهواء. ونقلها الى جرم الشجرة فوجدت فيها غذاء لتحيا وتنمو

فهلمّ ايها المتفلسفون من المادّيين الناكرين لوجود الخالق افيدونا كيف انّ هذه الخلايا مع كونها كلها متشابهة التركيب لا تخرج عن جنسها ونوعها. فلا تأتي خليّة الورد بخليّة الزنبق ولا تثمر حبّة القمح فولاً بل تبقى كل خليّة في خواصها النوعية. فمهما تشدّقتم ومهما تنطّعتم لا تجدون جواباً على ذلك الّا ان تعودوا الى كلمة الخالق في بدء سفر التكوين لمّا قال الله (تك ١: ١١): «لتنبت الارض نباتاً عشباً يبذر بزراً وشجراً مثمراً يخرج ثمراً بزرهُ فيهِ بحسب صنفهِ» (له بقيّة)

تعريف بعض مخطوطات مكتبتي

لجناب القانوني جرجس افندي صفا (*

عودٌ على ما بدأ بهِ في المشرق السنة الخامسة ١٩٠٢ صفحة ١٦٠ في بيان كتبي المخطوطة

١ كتاب ﴿ اجابة السائل الى معرفة الرسائل ﴾ وهو ثمان وعشرون ورقة لم يُذكر فيهِ اسم المؤلف طولهُ ١٠ سنتيمترًا وعرضهُ ٢٢ س اولهُ:

١) راجع كتاب المسيو فابر (Fabre: *La Plante*, p. 38)

*) بينا كنا نسعى بنشر هذه المقالة اذ بلغنا ما أُصيب بهِ جناب مكاتبنا من الخطب الاليم بوفاة نجلهِ برّد الله كبدهُ ورحم الفقيد رحمةً واسعة

بسم الله الرحمان الرحيم ربّ يسّر يا كريم الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام الاتمّان الاكملان على سيّدنا محمد خاتم النبيين. (الى ان يقول :) وبعد فقد سألني بعض اخواني ان اضع له اوراقاً في معرفة مصطلح ديوان الانشاء وكتابة الاسرار الشريفة المصونة مما عليه العمل بالبلاد الشامية وطرف من مصطلح الديار المصرية

الى آخر ما كتب في المقدّمة من بيان غرضه من هذا الكتاب ثم ذكر كيف يُكتب للملوك والحكّام والوزراء وغيرهم

ومما ذكره • صورة ما يُكتب الى متولي صرخد وعجلون وحسبان والسلط وامراء كسروان وبعض امراء الغرب ومقدمي البلاد كابن الحبيش وابن هلال الدولة مقدم الزبداني والجبّة وابن بشاره مقدم بلاد صفد وابن معن مقدم الشوف (كذا) • وما يكتبون هم لمن فوقهم

ثم ذكر كيف يكتب للعلماء وللعامة والفقراء والزهّاد وما يكتب في الامان والهدنة ، وهذه صورة ما ذكر انه يكتب في الهدنة قال : « واما الهدنة فانها لا تكون من نوّاب الممالك وانما تكون من السلطان نفسه لمن اراد هدنة من ملوك الكفّار وتكون الى اجل معلوم يهادن بها احدهما الآخر على نفسه وعساكره وبلاده ورعاياه وما يدخل في بلاده اما على مال يقرّره له على ذلك واما على شيء . واما اذا كان التقرير من الجانبين مواصفة (١ فليس اثباتها في هذه الورقات من شرط كتابنا وانّما اثبتناها ليستضيء بها المحتاج الى شيء منها وصورته :

هذا ما كان اليه واجل (؟) اليه مولانا السلطان فلان خلّد الله تعالى ملكهُ وسلطانهُ وشرّف به زمانهُ الملك فلان الفلاني هادنه حين تردّدت اليه رسلهُ وتوالت عليه كتبهُ واملهُ لمستملهِ وسألهُ ان يكف عنهُ أسلهُ فرأى سدّد الله آراءهُ انّ الصلح اصلح وان معاملة الله اربح وهادن هذا الملك وبسببه على نفسهِ واهلهِ وولدهِ ونسلهِ وجميع بلادهِ من مال وجهات وبلاد وعسكر وجنود وجموع وحشود ورعايا في مملكتهِ من المقيم والطاري والسائر بها والشاري هدنةً مدّتها اول هذه الساعة الذاهبة وما يتلوها مدّة كذا وكذا (والعادة ان يحسبوها سنةً واشهرًا واياماً وساعات حتى تستكمل السنين الشمسية المهادن عليها) يحمل فيها هذا الملك فلان الى بيت مال المسلمين والى تحت يد مولانا السلطان فلان قسيم امير المؤمنين في هذه المدة

---

١) لم اجد هذه اللفظة بالمعنى الذي اراده في كتب اللغة التي عندي كالمغرب والمحيط ومحيط المحيط والمصباح ومختارات الصحاح والتاج واللسان والسامي . والمراجع قانها حريّة ان يبحث

ويذكر القرْد ويجرّد ثم يقول:

يقوم بها هذا الملك من ماله (كذا) وما يتكفل بحمايته من حزبه اهل بلاده وخراج اعماله (ثم يذكر اقساطه). قياماً لا يحوج معهُ الى تكلف مطالبة ولا الى تناوله بيد مغالبة

الى ان يقول:

ويمنع ايدي النهب ويكف التازي ويمنع الاذى ويردّ من ترح من رعايا هذا الملك اليه ما لم يدخل في دين الاسلام ويشهد الشهادتين ويقرّ بالكلمتين المتنافتين

ومنها:

وعليه ان لا يكون عيناً للكفّار على بلاد الاسلام وان دنت به او بعدت وان ينهي ما يتجدد عنده من اخبار الاعداء ولو كانوا اهل ملته

الى ان قال:

ويشهد به الحضور في الملكتين. وتؤرَّخ بالعربي والسرياني

انتهى ما اختزناه من كتاب اجابة السائل. وفي آخر الكتاب: « تجز الكتاب في رابع شعبان المكرم سنة اربعين وثانمائة (١٤٣٦م) احسن الله عاقبتها بمنه وكرمه »

ويتلو كتاب اجابة الطالب هذا « كتابُ كشف المروط عن محاسن الشروط (١) » تأليف الشيخ الامام الكامل العالم العامل فريد عصره ووحيد دهره ابو محمد الحسن ابن الشيخ المرحوم النازل بفناء الله الشيك بعفوه وكرمه زين الدين عمر بن حبيب احسن الله عاقبته في الدارين بمحمد وآله وصحبه »

وفي آخره: « وافق الفراغ من هذه النسخة المباركة نهار الاثنين المبارك رابع عشر جمادي الاولى من شهور سنة اربعين وثانمائة (١٤٣٦ م) على يد العبد الفقير المعترف بالذنب والزلل محمد بن محمد الزنجي الحنفي عفا الله عنهُ بمنه وكرمه وعن جميع المسلمين وغفر الله لمن قرأ فيه ودعا لكاتبه بالتوبة والمغفرة » . وهو يبلغ ٦٧ ورقة بخط دقيق في كل صفحة سبعة عشر سطراً أضيفت الى الكتاب الاول يشتمل

---

١) قال الحاج خليفة في وصفه (٥ : ٢١٥) : كشف المروط عن محاسن الشروط للشيخ بدر الدين حسن ابن زين الدين عمر بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ (١٣٧٧ م) اوّلهُ: « الحمد لله القاضي بالحق القسم بالكتاب المسطور الخ. قال اورد فيه جملة من السجلّات على اصطلاح اهل المصر والشام

على صور شتى مما يكتب في عقود البيع والتمريض والمناقلة والسلم والرهن والتفليس والصلح والشفعة وغيرها من العقود بأسرها والوقف والحضانة والوصيّة والنفقات والقروض والمحاضر والمجالس والسجلات والحلف والتفويض والاسناد والاذن وغير ذلك

وفي آخره مجموعة على حدة مضمومة اليه تبلغ ٢٢ ورقة بخط دقيق نظير خط الكتاب السابق تحتوي خطباً متنوعة في النظام منها ما ذكر فيه اسم مؤلفها فمنها لنور الدين (كذا) ومنها لاحمد ابن علي ومنها لابي بكر بن احمد ومنها لمحمد (كذا) ومنها خطبة وقف ومنها خطبة لعمر بن الخطيب ومنها لفتح الدين ولاحمد المالكي ولاحمد الحنفي دون زيادة في تعريف هذه الاعلام . وفيها بعض تمائم وتقاليد حكمية وفيها يمين النواب في القلاع ولا بأس ان نذكر صورة هذه اليمين:

والله وتالله وبالله (ثلاثاً) ووالله العظيم الذي لا اله الا هو البارئ الرحمن الرحيم الطالب الغالب المدرك المهلك الضار النافع عالم الغيب والشهادة والسر والعلانية وما تخفي الصدور القائم على كل نفس بما كسبت والمجازي لها بما احتقبت وحق جلال الله وقدرة الله وكبرياء الله وسناء الله وسائر اسماء الله الحسنى وصفاته العليا انني من وقتي هذا وساعتي هذه وما مدّ الله في عمري اخلصتُ نيتي هذه ولا ازال مجتهداً في اخلاصها واصفيت سريرتي ولا ازال مجتهداً في اصفائها في طاعة مولانا السلطان وخدمته ومحبته وامتثال مراسيمه والعمل باوامره والله والله العظيم لا اظهر لمولانا ولا لاحد من اولاده واخوته سوءاً ولا غدراً ولا خديعةً ولا مخامرة ولا خيانةً في نفسي ولا مال ولا غلال ولا حصون ولا بلاد واني والله ابذل جهدي وطاقتي في طاعة مولانا السلطان وحفظ قلعته ومتى اطّلعتُ على ان احداً من المتجرّدين جا خان مولانا السلطان في ماله او قلعته او بلاده او غلاله او اخراج هذه القلعة من يده بمخامرة او مكاتبة انهي امره الى من يوصل ذلك الى مولانا السلطان واجتهد في ايصال ما اتحققه

ومنها:

واني والله في احوال السلطان بهذه اليمين من اولها الى آخرها لا انقضها ولا شيئاً منها ولا استثني فيها ولا شيء منها ولا اخالف شرطاً من شروطها ومتى خالفتها او نقضتها او شيئاً منها او استثنيت فيها او في شيء منها طالباً نقضها فيكون كلما املكه من صامت وناطق صدقةً على الفقراء والمساكين من المسلمين وكل زوجة في عقد نكاحي او اتزوّجها في المستقبل طالقاً على سائر المذاهب وعلى الحج الى بيت الله الحرام بمكة والوقوف في جبل عرفة ثلثين حجةً متوالية متتابعة كوامل حافياً حاسراً وعلى صوم الدهر كله الا الايام المنهي عن صومها وعلى ان اعتق الف رقبة سالمة من اسر الكفّار كل ذلك بطريق النذر المتيّن وته ان خالفتُ هذه اليمين او شرطاً من شروطها واليمين يميني انا فلان ويشهد على ذلك وكفى بالله شهيداً

٢ مجموعة طولها ١٨ سنتيمترًا بعرض ١٢ س تحتوي على شرح لطيف ﴿ للقصيدة الطنطرانية (١ ﴾ التي اولها:

يا خلي البال قد م بلبلت بالبلبال بال
بالنوى زلزلتني م والعقل بالزلزال زال

يتضمن بيان اللغة والاعراب بخط فارسي جميل جدًا عشر اوراق

ويليه ﴿ شرح نفيس على ابيات ضوء المصباح في النحو ﴾ ١٠ ورقة فيه بيان اللغة ثم الاعراب ثم محل الاستشهاد وكلا الشرحين غاية في الضبط واسم المؤلف مجهول. كتب الشرح الثاني سنة ٩١٥ ﻫ (١٥٠٩ م)

ثم ﴿ شرح مسألة الكحل النحوية ﴾ المشهورة وهي عمل اسم التفضيل في المظهر تأليف نجم الدين سعيد اوله: « بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد حمد الله تعالى والصلاة على رسوله فيقول المولى المعظم والفاضل المفخم كشاف المشكلات حلال المضلات نجم الملة والدين شمس الاسلام والمسلمين سعيد ». وهو ١٦ ورقة. ثم قصيدة مثلثة مثل مثلثات قطرب مجهول ناظمها في خمس اوراق اولها بعد البسملة والتقدمة (٢:

يقال للماء الكثير غمرُ والحقد في الصدر فذاك غِمرُ
والرجل الجاهل فهو غُمرُ ليس له خُبرٌ من الاخبار

﴿ وديوان فخري زاده ﴾ اوله بعد البسملة: « الحمد لله الذي انار بنور الهداية والتوفيق ابصار ذوي البصائر ». اربعون ورقة كتب سنة ١١٦٤ هجرية (١٧٥١ م) فن نظمه مدح الوزير الافخم والي العراقين الوزير احمد باشا ابن الوزير حسين باشا حين تولى بنفسه الاغارة على الضنفنة المساة بآل قشعم:

اغرتَ مُنارًا فيه اكرمُ مغنم وحزت فخارًا فيه كلُّ التكرمِ
علوتَ متون السابحات على الوتا وخضتَ غمارًا دونها عطرُ منشمِ

---

١) هذه القصيدة الشهيرة قد نشرها العلامة دي ساسي في كتابه الانيس المفيد (ج ٢ ص ١٠٨) ونقلها الى الفرنسوية وعرّف صاحبها المسمى معين الدين احمد بن عبد الرزاق الطنطراني من اساتذة المدرسة النظامية في بغداد في عهد منشئها نظام الملك في القرن الخامس للهجرة

٢) راجع كتاب البلغة في شذور اللغة والقصيدة هناك (ص ١٦٦)

وذكر في ديوانه مراسلات شعرية وردت اليهِ من بعض شعراء زمانهِ وما اجاب بهِ فن ذلك قصيدة ارسلها اليهِ ابو النجاة صادق بن علي بن الحسن بن هاشم الحسيني الاعرج اولها:

لئن سمحتْ بالمدح منّا القرائحُ فما احدٌ منّا لغيرك مادحُ
ومنها: وان شُدَّ رَحلٌ بالمسير فانّما اليك اخو العلياء تُطوى الصحاصحُ
وان احد ادلى من الناس دلوَهُ فما هو الّا من قُلَيبك مائحُ

وفي آخر المجموعة استغفارة للعلميّ (؟) لاميّة مخمسة:

يا نفس سيري لداعي الحق بالعجلِ يا نفس توبي عن الاسواء والطللِ
يا نفس اياكِ والتسويف في العملِ أستغفر الله من اثمي ومن زللي
ومن وجودي ومن علمي ومن عملي

٣ (مجموعة فلسفيّة) قديمة جليلة وصفها الاب لويس شيخو وصفاً مطوّلًا في مؤتمر المستشرقين في باريس سنة ١٨٩٧ ونقل عنها احدى مقالاتها . والمجموعة قديمة مكتوبة منذ نحو خمسمائة سنة على الاقلّ كما يظهر من هيأة ورقها لكنها خالية من التاريخ وهي بخطّ نسخي جليّ وحرف مائل الى الغلظ طولها ٢٣ سانتي وعرضها ١٦ س عدد صفحاتها ٣٦٠ وفي الصفحة ١٧ سطرًا . وهي تحتوي على ما يأتي من الرسائل

١ (رسالة في الاخلاق) هي ٢٥ ورقة ناقصة من اولها ومن آخرها . لكنّها معروفة وهي للشيخ ابي زكريا يحيى بن عديّ الفيلسوف النصراني المتوفّى سنة ٩٧٥ للمسيح طُبعت في بيروت مرّة اولى بهمّة المرحوم يوسف الشلفون في المطبعة العموميّة سنة ١٨٦٦ ثمّ تكرّر طبعها في مصر سنة ١٨٩١ . وفي مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت منها نسختان خطّيّتان

٢ (كتاب برسيس (كذا) في تدبير المنزل) ورقاته ١٣ . ذكر فيهِ كيف ينبغي ان يسوس الانسان بيتهُ ومالهُ ويتصرّف مع زوجتهِ وخدمهِ ويربّي اولادهُ . امّا مؤلفهُ فاسمهُ مُبهم يجوز ان يقرأ ترسيس او نرسيس او برسيس ولعلهُ ثارسيوس الرومي الحكيم الذي ذكرهُ ابن ابي اصيبعة (في طبقات الاطبّاء ١ : ٣٥) في جملة الاطبّاء المشهورين بعد جالينوس انهُ "قدم الاسكندريّة فصار واحدًا منهم" . وهذا الكتاب منقول عن اليونانيّة

٣ (رسالة دامسطيوس) «وزير اليان وهو يوليانوس الملك في السياسة نقل ابن زرعة من اللغة السريانيّة» والرسالة في سبعة اوراق · موضوعها كيف يجب على الملك ان يسوس نفسهُ ورعيّتهُ وجندهُ وحشمهُ ومملكتهُ وكيف ينبغي له ان يسعى في سعادتهم · ودامسطيوس (Themistius) من فلاسفة القرن الرابع للمسيح كان وثنيًا واحد ندماء القيصر يوليانوس المعروف بالمارق (Julien l'Apostat) كان من مفسّري كتب ارسطو · وكتابهُ هذا في السياسة لم يُذكر في جملة تآليفه اليونانيّة · امّا معرّبهُ ابن زرعة فكان من البدعة اليعقوبيّة واشتهر بترجمة كتب القدماء· توفّي سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)

٤ (رسالة افلاطون الحكيم) «الى فرفيريوس في حقيقة نفي الغمّ والهمّ واثبات الزهد جوابًا عن سؤال كان سبق منهُ اليهِ» · هذه الرسالة في خمس اوراق ولم تُذكر في جملة اعمال افلاطون وانّما يشبهها بالاسم رسالة من رسائلهِ لا ينطبق عنوانها على هذه سمّاها في مجموعة اعمالهِ (De amovendis animæ curis) ولعلّها لاحد تلامذتهِ او المنتمين الى آرائه · هذا اوّلها :

« بسم الله الملك الحقّ والاله الصادق بلغات الافتراق المقصود بالاتّفاق القديم الذي لم يزل منشئ مبادئ الحركات الاولى خالق الاضداد في الاصلاح والافساد . . . »

وفي آخرها ملحق ورد فيهِ قول فيثاغورس في الفقر والغنى

٥ (رسالة الثاني لهرمس الفاضل المثلّث الحكمة في معاتبة النفس) تستغرق ٣٢ ورقة وهذه الرسالة تُعرف ايضًا بزجر النفس طبعها لاوّل مرّة في بونة من اعمال المانية سنة ١٨٧٣ العلّامة برْدِنْهَوِر (Otto Bardenhewer) مع ترجمة لاتينيّة وشروح · وكرّر طبعها في بيروت حضرة الخوري فيليمون الراهب الحلبي سنة ١٩٠٦ · وفي مكتبة الآباء اليسوعيين البيروتيّة منها ثلث نسخ خطّيّة

٦ (مختصر من كتاب الاخلاق لجالينوس) في ٢٢ ورقة · الاصل اليونانيّ (Περὶ ἠθῶν) طُبع غير مرّة (راجع .Galeni, *Scripta minora*, ed. Muller) II, p. 31) · ولعلّ هذه الترجمة هي التي نسبها ابن ابي اصيبعة لحبيش الناقل النصرانيّ · دونك اوّلها بعد البسملة :

الخلق حال للنفس داعية الى الانسان ان يفعل افعال النفس بلا رويّة ولا اختيار وبيان

ذلك إنّ في الناس قوماً اذا فاجأهم الصوت الهائل ارتاعوا وجُنّوا واذا رأوا او سمعوا شيئاً مضحكاً ضحكوا من غير ارادة وربّما ارادوا الامتناع فلم يمكنهم ولذلك فحصت الفلاسفة عن الخلق هل هو للنفس التي ليست بناطقة فقط او يشوب الناطقة منهُ شيء

٧ (رسالة لجالينوس ايضاً في انّ قوى النفس توابع لمزاج البدن) هذه ايضاً ملخّصة عن مقالة يونانيّة لجالينوس (Id., Muller II, 32-79) وهي في اربع صحائف. وجاء في وصف مخطوطات قصر الاسكوريال في مدريد لمخائيل الغزيري (Casiri, *Bibl. Escur.* I, 255) انّ هذه الرسالة عرّبها حبيش ومنها هناك نسخة. وهذا اوّلها في نسختنا بعد البسملة:

«لمّا فحصتُ عن اتباع قوى النفس لمزاج البدن مرّات كثيرة مع مطّني وبانفرادٍ من نفسي ومع حذّاق الفلاسفة وجدتُ القول بذلك حقّاً ونافعاً للذين يريدون زينة انفسهم... ومبدأ جميع القول الذي نريد ان نذكرهُ هو معرفة إختلاف افعال النفس وانفعالاتها الظاهرة في الصبيان الصغار وذلك انّ منهم من نجدهُ صابراً ومنهم جريئاً ومنهم شرهاً ومنهم خلاف ذلك... فقوى انواع النفس الثلاث واجزاؤها الثلثة في الصبيان بالطبع مختلفة...»

٨ (رسالة لجالينوس ايضاً في الحثّ على تعلّم الصناعات والعلوم) مختصرة في ورقتين وهي في الاصل اليوناني ١٤ ورقة طبعها مركردت (Marquardt) في جملة مقالات جالينوس (Galeni, *Scripta minora* I, 102-129). فمن قوله في المقدّمة:

«...قالَ (الانسان) وحدهُ لهُ قبول تعلّم الصناعات الكثيرة واستعمالها واكثر الحيوان غير الناطق لا ياتي شيئاً من الصناعات وما كان منهُ ياتي صناعةً ما فانّما ياتيها بالطبع لا بالارادة والانسان لا يفوتهُ معرفة شيء من هذه فانهُ يشارك العنكبوت في النسج والنحل في البناية ومع هذا لا يفوتهُ ما يعانيه المتألّهون كالطبّ والكهانة واشفاء المرضى والإخبار بما تحت الارض وفوق السماء»

وممّا جاء فيها قولهُ بعد ان اوضح انّ العلم افضل من المال:

«كيف لا يفهم محبّو المال انّهم انّما يؤثرون ويختارون من الحيوان الذي لا نطق لهُ ما كان فيهِ فضيلة ما تأديبيّة كالخيل التي قد عُلّمت جودة المشي والعَدْو وسرعته. والكلاب والطيور التي قد عُلّمت الصيد فانّ هذا آثر عند الناس من باقي الخيل والكلاب والطيور التي لم تؤدَّب. وهؤلاء يلتمسون عبيدهم الصناعات وقد يطرحهم بعض الآداب الطبّيّة وينفقون عليهِ مالاً ويخدمونهم ليُحصّل مال كثير ويغفلون امور نفوسهم حتى يصير العبد بصناعته الطبّيّة او الطبّيّة يساوي الآلاف من الدراهم وسيّدهُ لو صار عبداً لم يسام منهُ لعدمهِ ذلك ولا بعض الف درهم ولا درهماً واحداً بل قد نجد هذا الرجل لا يرضى احد ان يأخذهُ مجّاناً»

(كتاب التفاحة لسقراط وهو غير كامل والموجود منهُ عشر صحائف . هذا الكتاب ينسبهُ البعض لارسطاطاليس Wenrich: *de auctorum græcorum versionibus*) وما يؤخذ من نصوص نسختنا اولى بسقراط اذ ورد فيها ما يشير الى اقوال سقراط قبل موتهِ لما اضطرّوهُ الى شرب السمّ . وقد نقل هذا الكتاب ابراهيم بن حسداي الرّبان اليهودي عن العربيَّة الى العبرانية . وهذا ما ورد في اوّل الكتاب بعد البسملة :

مختصر كتاب التفاحة لسقراط

ذُكر انَّ سقراط الفيلسوف لمَّا حضرتهُ الوفاة اجتمع اليهِ اصحابهُ فرأوا منهُ علامات الموت ما يئسوا بهِ من حياتهِ وظهر لهم منهُ من السرور وصحَّة العقل ما طمعوا لهُ في ان يكون يحسّ من نفسهِ سوى ما ظهر لهم . فسألهُ تلاميذهُ عن ذلك فقال : انَّ الذي يظهر لكم من سروري ليس من طمع مني في الحياة بل من ثقة مني بالروح بعد الموت . فقال تلميذهُ : عرفنا لكي نثق نحن ايضًا اذا سلكنا سبيلك ونتزّى في امرك . قال : اني لمتكلّف لكم الكلام ولكني بادئ بهِ تابع (كذا) من رفيقك فاني أراهُ يهمّ بالكلام . فقال هذا التلميذ الآخر : اني وان كنت راغبًا في استخراج الكلام منك أيها المعلم الصالح فانهُ يمنعني عن ذلك ان الطبيب الذي سقاني الدواء امرني ان اتركك تُقلّ الكلام . فقال سقراط : اني تارك رأيهُ ودواءهُ ومكتفٍ من الادوية والاقوات بريح تفاحة تمسك نفسي ريثما اقضي حاجتكم وكيف ادع الكلام لاجل الدواء وافضل ما رجوت بهِ القوَّة على الكلام قليلًا . ثم اخبروني أيوقنون انتم بفضل الفلسفة التي سمّاها حبّ الحكمة ام لا . قالوا : ما وسمناها الاَّ لعلمنا بفضلها . قال : أفي الدنيا ذلك الفضل ام في الآخرة . قالوا : اذ رأينا غير اهلها افضل في الدنيا عيشًا من اهلها فقد اضطرّنا الرأي الى ان نوجب ذلك لها في الآخرة . قال : فاذًا ان كرهتم الموت الذي هو السبيل الى الآخرة فقد كرهتم ما فيهِ الفضل لكم ووضعتم ما فيهِ الضرر عليكم وانكم احقّاء ان تنظروا ما هذا الموت المكروه عند العامَّة هل تجدونهُ غير مفارقة الروح للجسد . قالوا : لا . . . .

١٠) رسالة من كلام جمعهُ حنين بن اسحاق من آراء ارسطوطاليس في انَّ الضوء ليس بجسم) . القيم " بن هلال الصابي . رسالة في خمسة اوراق . وهي التي نقلها من هذه المجموعة الاب لويس شيخو ونشرها مع ترجمتها الفرنساوية في مؤتمر المستشرقين في باريس ١٨٩٧ (Congrès des Orientalistes de Paris, 1897, III, 129-142) . - فالعلّامة حنين بن اسحاق هو احد مشاهير نصارى السريان ونَقَلَتهم المجوّدين توفي سنة ٢٦٠ للهجرة (٨٧٤ م) اما القيم بن هلال الصابي فعاش بعد حنين

بزمن قليل وتوفي سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م). وفي هذه الرسالة ما ينطق بفضل ارسطاطاليس وعقله الثاقب وسعة معارفه الطبيعيّة

١١–١٦ (رسالات أُخر) بقيّة هذا المجموع في نحو ٥٠ صحيفة تحتوي قطعاً من تسع مقالات ذهبت باكثرها ايدي الضياع فجُمع منها ورقاتها الباقية. فالاولى قطعة من مقالة لعليّ بن ابراهيم الكنزطانيّ في التربيع – والثانية قطعة من رسالة في ستة اوراق لا يُعلم صاحبها وهي تتضمّن كلاماً على طريق الفلسفة في الشرائع والسياسة ولعلّها للفارابيّ – والثالثة قطعة من كتاب الثمرة لبطليموس شرح احمد بن يوسف الكاتب (Cfr *Wenrich*, p. 231) معروفة ومنها نسخٌ خطيّة متعدّدة – والرابعة قطعة فلسفيّة في الكليّات – والخامسة قطعة من كتاب الاخلاص اختصار الاسكندر امين (كذا) – والسادسة قطعة في الآداب والسابعة قطعة من قصّة بِلام ويوشفاط – والثامنة قطعة من كتاب تدبير التوحّد لابي بكر ابن الصائغ الشهير بابن باجة – والتاسعة الاخيرة قطعة من كتاب الملّة للفارابيّ. وافضل ما في هذه القطع القطعة الثامنة لابن باجة (Avenpace) احد كبار فلاسفة المسلمين في الاندلس المتوفّى سنة ١١٣٨م وقد فضّله البعض على ابن رشد وكان بينه وبين الوزير الفتح ابن خاقان عداوة ولذلك بخس حقّه في كتاب قلائد العقيان ونسبه الى الكفر والالحاد. وقد اطرأ غيره في ذكره ومدحوه، وعلى الاخص ابن ابي اصيبعة الذي نعته باوحد زمانه في العلوم الحكميّة واعجوبة دهره وقال: «انه لم يكن بعد ابي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلّم عليها» وقد فسّر ابن باجة كتب ارسطو وتتلمذ له كثيرون منهم القاضي الوليد محمد الشهير بابن رشد. وقد ذكر ابن ابي اصيبعة كتاب تدبير التوحّد الذي نحن في صدده وقال انه بدأ فيه ولم يكمله. وهذا اول الكتاب كما في نسختنا:

نبذة من كتاب تدبير المتوحّد

قال ابو بكر ابن الصائغ: تقال لفظة التدبير على ترتيب افعال نحو غاية مقصودة ولهذا يطلقون على الاله اسم مدبّر العالم. وهذا قد يكون بالقوّة وقد يكون بالفعل ودلالتها على ما يكون بالقوّة اكثر واشهر لان هذا الترتيب مختصّ بالفكر الانسانيّ. وقد يقال التدبير بعموم لكل افعال الانسان ويخصوص على ترتيب المدينة والمنزل وبعض التدبير يتقدّم على بعض في

الشرف فتدبير الاله هو التدبير المطلق وهو التدبير الاشرف. والتدبير ينقسم الى صواب والى خطإ . . .

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

١٦ العراق – شط العرب – خليج العجم

كانت الباخرة التي ركبناها لشركة انكليزية تُدعى بتغرس (Tigris) اي دجلة وهي تتنقل بين بغداد والبصرة ولا تصلح للخوض في البحار لاستواء قعرها. واذا قلَّت مياه النهر سارت سيرًا بطيئًا لئلا تصطدم بقاعهِ فترتطم. وكانت الامطار لحسن طالعنا قد لاءَت سطح النهر فقطعنا المسافة التي تفصل بغداد من البصرة بيومين ونصف ولا تُقطع عادةً باقلّ من اربعة ايَّام وهذه المسافة نحو اربعمائة كيلومتر

ركبنا السفينة في مساء يوم الثلاثاء ٣ ك ١ اما موعد السفر فكان في سحر اليوم التالي. وكان بعض الآباء المرسلين تلطّفوا فرافقونا ليشيّعونا واوصوا بنا بعض تلامذتهم القدماء من موظفي السفينة وكذلك ارسل سيادة المطران انطاطيوس نوري كاهنين من كهنتهِ ليقرئانا الوداع فشكرنا الجميع على ما اظهروهُ نحونا من الانس ومزيد الحفاوة. ثم قضينا قسمًا من تلك الليلة في السَّمر في صحبة العمَّال وبعض ادباء البغاددة المنحدرين معنا الى ولاية البصرة

وفي غلس يوم الاربعاء اقلعت السفينة فمخرت في اواسط دجلة وجرت جريًا حثيثًا نكنهُ ليّنًا لا يكاد يحسُّ بهِ الراكب فكنّا نرى ارباض بغداد وفيها ما فيها من انواع المزروعات تميس في وسطها اشجار النخل بعضها موسوقة بشماريخ التمر وعذوقهِ الضخمة. ودجلة في هذا المكان تقترب من نهر الفرات حتى لا يبقى بينهما مدًى واسع فيُخصب كلا النهرين ما بينهما من الاراضي التي تُعدّ من اجود تُرَب المعمور فهناك تزرع صنوف الغلّات والارزّ والقطن وقد نظم القدماء تلك الجهات في عداد جنات الارض بل عدُّوها من جنَّات عدن . ولولا ما استولى على سكَّانها

من خمود الهمّة في القرون الاخيرة لدرّت لبناً وعسلاً كفلسطين واكثر منها (١. والامل معقود اذا أُصلحت القنيّ القديمة وانتظمت اعمال الريّ التي عرضها وتكوكس ووصفها جناب تلميذ كليتنا للهندس ادمون افندي بشارة (في الشرق ١٢ : ٣٥٣) على ان عمرانها السابق يعود اليها

وفي ضحى النهار رأينا عن بعد في ضفّة النهر الشمالية ابنيةً ضخمة اخذت تنجلي شيئاً فشيئاً للعيان واذا هي قنطرة عظيمة مبنية بالآجرّ يبلغ علوُّها نيفاً وثلاثين متراً وبقربها بقايا قصر ذي اربع طبقات يرتفع فوق اربع قناطر أُخر فكنّا نعاين نوافذهُ وأُطرهُ ورواشنهُ واروقتهُ وجدرانهُ ونقوشهُ ولا تشبع العين من رؤية زخارفهِ. فتلك انقاض طاق كسرى او ايوان كسرى الذي تكرّر ذكرهُ في تاريخ الفتوحات الاسلامية وقد خصَّهُ حضرة الاب انستاس الكرملي بوصف واسع دوّنهُ في اعداد السنة ١٩٠٢ من المشرق (٥ : ٦٧٣ و ٧٨٠ و ٨٣٤) فافاد واجاد ولم يبقِ لنا مجالاً للمزاد. فهناك كانت مدينة طيسفون (Ctésiphon) الشهيرة حاضرة ملوك العجم الاكاسرة من الدولتين الاشكانية ثم الساسانية. وكان بازائها مدينة أُخرى اقدم عهداً تُدعى سلوقية بناها على ضفّة دجلة اليمنى او الغربية سلوقوس نيكاتور احد قوّاد الاسكندر في اوائل القرن الثالث قبل المسيح. وكان العرب يدعون هاتين المدينتين وبعض المدن المجاورة لها بالمدائن وبقيت المدائن عامرة يقيم فيها جاثليق النساطرة الى ان غلب عليها نموّ بغداد فدخلت في خبر كان

ومن الآثار الباقية قريباً من هناك جامع صغير لكنهُ قديم ولطيف البناء شيَّدهُ المسلمون لذكر سلمان پاك اي سلمان الطاهر من اصحاب نبيّهم وهو المعروف بسلمان الفارسيّ كان زاهداً وقيل راهباً نصرانيّ نسطورياً اسلم فتولّى عمل المدائن وكانت وفاتهُ سنة ٣٦ هـ (٦٥٢ م) ويزعمون انهُ عاش ٢٥٠ بل ٣٥٠ سنة (كذا)

وللنهر دجلة بعد ذلك تعاريج وليّات عديدة يبتعد فيها عن الفرات بعد اقترابهِ منهُ وهي تعرّض السفينة للارتطام ولذلك كان قائماً على جانبيْ مقدَّمتها نوتيّان لا يزالان يسبران قعر النهر فيعلمان الرُّبان بنتيجة سبرهما

ثم وصلنا الى العزيزيّة وهي بلدة صغيرة على ضفّة دجلة اليُسرى اصبحت منذ

١) اطلب مقالة الاب انستاس في حالة بغداد التجاريّة والزراعية (المشرق ٨ : ٣٤١)

سنة ١٨٨٤ مركزاً مهماً بفتح ترعة جادي واستثمار منجم من الملح المعدنيّ هناك وفيها يقيم اليوم قائمقام السنجق وقد صار اقبال اهلها على الزراعة فزادت الغلّات زيادةً مذكورة. وكان على يميننا سنجق الحلّة حيث كانت بقرب الفرات بابل القديمة التي استخرج الاثريّون كثيراً من عاديّاتها. وهناك بقايا برج نمرود حيث يُروى ان بني نوح شيّدوا ذاك الصرح العالي الذي فيه تبلبلت الالسنة. واخربتهُ الباقية في يومنا تبلغ ١٢٩ قدماً في العلوّ و١٥٨ في الطول و١١١ في العرض. امّا الحلّة فمدينة وسطى اهلها ٣٠,٠٠٠ وتُعرف بحلّة بني مزيد موقعها في ارض بابل. قيل انّ اوّل من اختطّ منازلها وعظّمها سيف الدولة صدقة بن دبيس بن عليّ بن مزيد الاسديّ سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م)

ووراء هذا السنجق سنجق كربلاء حيث مدينة كربلاء والنجف مزاريَ الشيعة كما سبق وهناك كانت قديماً على الفرات او بعض شُعَبه مدن شهيرة كالحيرة حاضرة بني المنذر والكوفة الشهيرة بنُحاتها والانبار حيث اقام بنو عبّاس مدّةً قبل بناء بغداد والقادسية حيث كانت المعركة العظيمة التي ابادت ملك الاكاسرة وفتحت العراق للمسلمين في أيام عُمر بن الخطّاب. وتلك الجهات كلها دائمة الشهرة جرت فيها وقائع تشيب لذكرها الاطفال منذ عهد الدول الاولى التي ظهرت على الارض الى زمن دولة الاتراك. وفيها يدخل سواد العراق الذي افاض قدماء الكتبة بوصف خصبه ووفرة غلّاته وزيادة خيراته

في صباح الخميس ٥ ك ١ ارست سفينتنا ساعةً عند كوت الامارة وهي مدينة صغيرة اكثر اهلها مسلمون شيعيُّون وهي احدى اقضية بغداد ومركز لقائمقام. قيل انّها دُعيت قديماً باسم امير على قبيلة ربيعة كان يدعى بكوت. ولعلّ كوت هذه قامت بعد خراب مدينة كانت هناك في وسط الطريق بين البصرة وبغداد على الجانب الغربيّ من دجلة عُرفت بواسط واشتهرت في القرون الاولى من الاسلام بكثرة بساتينها ومياهها وغلّاتها وقصورها فاخنى عليها الدهر

☆

وفي ظهر النهار بلغنا حدود ولاية بغداد ودخلنا ولاية البصرة وكنّا نرى جانبي النهر منازل وخياماً تسكنها قبائل من العرب فكان صغارهم اذا رأوا سفينتنا

تراكضوا اليها واطلبهم في أسمال رثّة او لا يستر عريهم ثوب فيصرخون طالبين البخشيش فكان ركّاب السفينة يلقون في النهر قطعاً من الخبز او دريهات فيتهافت الصغار الحال ويرمون بنفسهم في الماء فيلتقطونها او يغوصون الى قعر النهر فيستخرجونها. وكلّ هذه نواحي العراق يكثر فيها العرب وهم من قبائل شتى (١ اكثرهم عدداً قبيلة المنتفك قيل ان عدد خيمهم ٧٠,٠٠٠ ونفوسهم ٣٥٠,٠٠٠ وكان اميرهم منصور يُدعى بسلطان البرّ وهم يسكنون ولاية البصرة في السنجق المنسوب اليهم وكلهم شيعيّون. ومنهم بنو لام على حدود ولايتي بغداد والبصرة في جهات العمارة عدد خيمهم ٢٤,٠٠٠ والنفوس ١٢٠,٠٠٠. ومنهم بنو دُلَيم خيمهم ٤٤,٠٠٠ والنفوس ٢٢٠,٠٠٠ في غربيّ ولاية بغداد. ومنهم بنو عنزة وعددهم يبلغ نحو ٥٠٠,٠٠٠ لكنهم متفرّقون في العراق والجزيرة والشام ومثلهم بنو شمّر الذين يبلغون ١٨٥,٠٠٠ وعدد خيمهم ٣٧,٠٠٠ وبنو طيّ البالغ عدد خيمهم ١٧,٠٠٠ ونفوسهم ٨٥,٠٠٠. ومن قبائل العراق الشهيرة بنو خزاعة او الخزاعل الذين عرّفهم في المشرق سنة ١٩٠٧ (٥:١٢٨؛١٦٣؛٢٠٦) حضرة الاب انستاس الكرملي وكذلك بنو عُبَيد

ولهؤلاء الاعراب عادات يتنازون بها في احوالهم وتدابيرهم السياسيّة والادبيّة تحت قيادة امرائهم او شيوخهم لم يكادوا يخالفونها منذ اجيال عديدة ومعاشهم غالباً من رعية المواشي. وبينهم اهل الحضر الذين يرتزقون بالفلاحة

اوّل مدينة لقيناها في ولاية البصرة عمارة وهي مركز قضاء يقيم فيها المتصرّف وتحتها ثلاثة اقضية. ومدينة عمارة حديثة البنيان يرتقي اصلها الى سنة ١٨٦٠ حيث ظفر الفريق محمّد بك الدياربكرلي بقبائل العرب التي كانت هناك وابتنى ثكنة لجنود الدولة فجاء قوم من البصرة وبغداد فسكنوا في جوارها وعدد اهلها اليوم نحو ١٢,٠٠٠ وهي طيّبة الهواء. وقد انشأ فيها المرسلون الكرمليّون دار رسالة ومعبداً ومدارس فيبلغ اليوم فيها عدد الكاثوليك قريباً من الالف (راجع مقالتنا رسولا الخير العام في مدينة السلام في المشرق ١٥:١٦٩ و١٧٢)

١) اطلب كتاب المرحوم حبيب شيحا في بغداد (H. K. Chiha: *La Province de Bagdad*, p. 234-250)

وسنجق عمارة يبلغ خصباً غريباً لطيب تربتها وكثرة القنيّ والمُسنَّيات التي تجري فيها مياه الريّ فتسقي نواحيها حتى انّ محصولاتها الزراعيّة كادت تبلغ ٢٠٠,٠٠٠ طنّ لولا انّ قسماً من تلك المياه تستنقع في بعض البطائح فتتولّد فيها الحُمّيات الخبيثة التي اشتهرت بها ولاية البصرة وتنقل جراثيمَ تلك الحُميّات ضروبٌ من البعوض وهم يدعونهُ البقّ فدعوا مستنقعات البصرة بأُمّ البقّ لكثرة هذه الحشرات فيها

وكذلك عُرف في سنجق عمارة وما يليها من سنجق المنتفك قومٌ كثُر فيهم القال والقيل نريد بهم الصابئة او المندائيّون وفي المشرق في اعداد سنيه الثلاثة ١٩٠٠–١٩٠٢ مقالات مستفيضة لحضرة الاب انستاس الكرملي في تعريف هذه الشيعة الغريبة واصلها وفصلها وتعاليمها فلتراجع. وهم يسكنون في جوار دجلة لما تقضي عليهم من الاغتسالات المتعدّدة في الاسبوع وقيل انّ عددهم لا يتجاوز من عشرة آلاف الى ١٢,٠٠٠ نفس

وفي سنجق المنتفك في القضاء المعروف بشطرة العمارة كانت مدينة لاكاش احدى حواضر قدماء الكلدان الذين سبقت دولتهم مملكة الاشوريين. وهذه المدينة الجليلة لم يبقَ منها سوى اخربة تُعرف باسم تلّو فاحتفر فيها المسيو دي سرزك (de Sarzec) والكبيتان كرو (Cte Gros) الحفريّات المتوالية التي اوقفتنا على اقدم آثار تلك الدولة فنُقل منها قسم كبير الى متحف اللوفر في باريس. وكذلك الاثري الانكليزي القنصل تلّر (Teller) استخرج دفائن ثمينة من التلّ المعروف بابي شهرين واحتفر الالمان زرگل وكلها في قضاء شطر العمارة. وهناك الخربة المُقيَّر التي اجروا فيها الحفريّات وتعرّفوا منها انّها مدينة اور الكلدانيين موطن ابراهيم الخليل المذكور في سفر التكوين (١١: ٣١) وقيل انّ فيها كان مولدهُ. وزعم البعض انّهُ ولد في ارك المعروفة اليوم بالوركاء من مدن العراق (اطلب وصفها في المشرق ٦: ٤٥٤ للاب انستاس الكرملي)

في رأد الضحى من يوم الجمعة ٦ ك ١ مررنا بقرب جامع لليهود رأيناه من عن يميننا يدعونهُ نبي عُزَيْر ويدَّعون انّ فيه قبر عزرا الكاهن صاحب السفر المنسوب اليه في التوراة وهم يحجّون اليه من كل صوب ويعظّمونهُ وقد ابتنوا حولهُ بعض الخانات والمنازل لاهل محلّتهم

وفي منتصف النهار بلغ بنا السير الى القرنة وهي مدينة صغيرة حديثة البناء أتخذتها الدولة العليَّة لمراقبة حركات العجم المجاورين لتلك الناحية . واسمها القرنة اشارة الى اقتران دجلة والفرات عندها فيبتدئ منها ما يدعونهُ بشطّ العرب . ومن القرنة الى خليج العجم تستطيع السيرَ السفنُ التجاريَّة الكبرى التي لا تتجاوز عادة مرسى البصرة اذ يبلغ عرض النهرين نحو الفي ذراع في عمق سبعة او ثمانية امتار . والتقاليد المحليَّة تزعم انَّ الفردوس الارضيَّ كان هناك وأرونا شجرة كبيرة من جنس السدر كثيفة الاغصان صفراء الزهور ادَّعوا انَّها شجرة معرفة الخير والشر المحكيّ عنها في سفر التكوين (٢ : ١٧) . وفي القرنة يجري كلَّ يوم مدُّ البحر وجزرهُ فانَّ بحر الهند المتَّصل ببحر فارس يمدُّهُ ويجزرهُ وبحر فارس يُصعد مياه شطّ العجم ويهبط بها . واذا صعدت المياه سترت القاطعات المرتفعة فوق الارصفة من البصرة الى القرنة . والقرنة هذه مشهورة بانسجتها الناعمة منها الأعبية الرقيقة الغالية الثمن المعروفة بالحاشية

وبعد قليل اندفع مركبنا ابيع شوطهُ الاخير فوصل في اصيل النهار الى البصرة . فارسى في الحوض الذي تجري اليه مياه شطّ العرب بازاء المدينة او بالحري بازاء ابنية مرفأ البصرة لانَّ المدينة تبعد عن المينا نحو خمسة اميال . وكانت في المرسى سفينة اسمها جاوة (Java) من احدى الشركات الانكليزيَّة (British India Steam Navigation C°) على وشك السفر الى بمباي فنزلنا على الشركة في المدينة لنقطع اوراقنا واذا بالمحلّ مقفل فزرنا الوجهاء من آل الاصفر من اقارب بيت الاصفر في بغداد ثمَّ عدنا راجعين وانتقلنا الى الباخرة جاوة فقطعنا فيها اوراق سفرنا

وكان بودّنا ان نتجوَّل في المدينة مع شهرتها في تواريخ العرب غير انَّ بعض رفقتنا الذين كانوا يعرفونها حقَّ المعرفة افادونا انَّ البصرة الحاليَّة ليست بصرة العرب فانَّ الحاليَّة حديثةٌ ليس فيها ما يستحقّ الذكر . فاهلها نحو ٢٥٠٠٠ معظمهم المسلمون وبينهم نحو الفي ارمنيّ غريغوري ونحو الف كاثوليكيّ وللآباء الكرمليين دارٌ في البصرة يسكنها غالباً احد مرسليهم ويدير مدارسها ويخدم نصاراها وكذلك للكلدان كنيسة ورعيَّة تحت نظارة احد كهنة الشوط بالكرسيّ البطريركيّ .

والمدينة ضيقة الارجاء وسخة يتزاحم فيها اهلها وتكثر فيها الاوبئة . واتّخذ والي البلد وحاشيته والقناصل واصحاب الاعمال التجارية لهم مقاماً اصلح واقرب الى الشط منذ زمن مدحت باشا فبنوا فيه الدور الواسعة والمعاهد الفسيحة

امّا بصرة القديمة فتبعد عن الحالية نحو عشرة اميال في جوار قبر زُبير الصحابيّ وبه تُدعى . وكان بانيها الخليفة عُمر في مكان مدينة اخرى قديمة في السنة ١٤ للهجرة (٦٣٦ م) واشتهرت بعد ذلك بتجارتها وبلغ عدد اهلها نحو ميتي الف وفيها كان النحاة البصريّون الذين نازعوا فئة الكوفيين في آرائهم اللسانيّة في القرون الثلاثة الاولى للاسلام لكنّ تلك الحركة خمدت بعد ذلك وقد اخبر ابن بطوطة في كتاب رحلته كيف انهُ سمع خطيب البلدة يلحن في خطبة يوم الجمعة . ثمّ خربت بعد ذلك وقد بقي من آثارها سورها القديم مع شرفاته وابراجه . وزُبير التي خلفتها قريةٌ يبلغ اهلها نحو ٥٠٠٠ نفس وحولها مزارع ومباطخ اشتهر بطيخها

وليس بعيدًا منها تلّ احتفرهُ الاثريّون ووجدوا فيها عاديات ترتقي الى عهد الدولتين الاشوريّة واليونانيّة فاستدلّوا بها على ان هناك كانت مدينة طريدون (Térédon) التي اتّخذها نبوكدنصّر كرفإ جنوبيّ مملكته وكان البحر يمتدّ اليها وهو اليوم بعيد عنها

والبصرة في زماننا واسعة المتجر تبلغ قيمة صادراتها السنويّة ما يساوي نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك . وغنى البصرة بمحصولات غلاتها ولا سيما تمرها الشهير الذي تبلغ اصنافهُ فوق السبعين صنفاً ويحددون ٥٠٠٠ تيقاً وخمسين الف طنّ وذلك من البصرة وحدها . امّا ولاية البصرة فيبلغ مجموع تمرها تيقاً ومليوني طنّ

ومن صادرات البصرة الملح فانّ هناك ملّاحات واسعة كملّاحات حمدان والكويت وغيرها وملحها من اجود الاصناف . قيل انّ ملّاحة حمدان تتّسع نحو ١٨ كيلومترًا مربعاً ولو شاؤوا لاستخرجوا منها في السنة الفَ الفِ كيلو من الملح

وفي ولاية البصرة ايضاً كانت قديماً غابات واسعة تأوي اليها ضراري الحيوان بقي منها الى اليوم ذئاب وسباع وخنازير البرّ وحمار الوحش والنمام وقليل من الاسود والسباع . وكثيراً ما ورد ذكر الاسود في تواريخ العراق وعرب المنتفك يصطادون بعضها الى يومنا في سنجق نجد اللاحق بالبصرة قيل انّ بنات شيوخهم

كنّ اذا خطبهنّ احد لا يرضين بهِ زوجاً الّا اذا قتل اسداً واتى برأسهِ الى خطيبته كمهر واجب للاقتران بها

سارت سفينتنا جاوة في سحر يوم السبت ٧ ك ١ متّجهةً الى مصبّ شطّ العرب في بحر فارس والمسافة من البصرة اليهِ نحو تسعين كيلومترًا . وكانت السفينة غاصّة بالركّاب اكثرهم من اهل الشيعة قدموا من العجم والهند الى النجف وكربلاء ليزوروا مشاهد اوليائهم وهم اليوم عائدون الى بلادهم . فسنحت لنا الفرصة بان ندرس طباعهم فكانوا يقضون نهارهم في الحديث وشرب الشاي وتدخين النرجيلة وفي خدمتهم عبيدٌ لا شغل لهم الّا إعداد اكلهم وشربهم وكان طعامهم لا يكاد يختلف كلّ يوم وهو الخبز والارزّ يؤدمونهُ بادام اصفر مركّب من الخردل والافاويه يدعونهُ الكاري وكانوا اذا انتهوا من اكلهم تتبعهم نساؤهم ومن خلف حجابات فيأكلنَ بعدهم ثمّ يأكل الخدم. واهل الشيعة لا يسمحون لذمّيّ ان يمسّ طعامهم وان فعل كسروا الآنية التي اكل او شرب منها . وكنّا نسمع لَغَط تلك النسوة وجلبتهنّ طول النهار الّا في اوقات الصلاة فكان الرجال يجتمعون من جهة والنساء من جهةٍ اخرى وكلّ فئة تتغنّى بالسور القرآنيّة على نغمة تطرب منها الآذان . واكثر هؤلاء العجم يقرأون القرآن وهم لا يفهمون معناهُ اذ لا يعرفون العربيّة فكانوا اذا كلّمناهم بهذه اللغة يعجزون عن الجواب ويكرموننا لمعرفتها

وصلنا بعد مسير ساعة الى مدينة المحمّرة وهي مدينة حديثة على ضفّة شطّ العرب الشماليّة وهي خارجة عن حدود تركيّة تخصّ العجم . وكانت هذه المدينة خاملة الذكر الّا انّ الانكليز منذ نحو عشرين سنة جعلوها مربطًا لسفنهم وعندها يصبّ في شطّ العرب نهر كارون . فالسفن الانكليزيّة نالت الرخصة من دولة العجم بان تقطع النهر فتبلغ الى الاهواز حيث تُفرغ سلعها التجاريّة التي تنقلها من هناك مراكب صغيرة الى شُشتَر حتى اصفهان . فصارت بذلك المحمّرة مركزًا تجاريًا هامًّا وزاد نفوذ الانكليز في جهات فارس

وفي ظهر النهار وصلنا الى مصبّ شطّ العرب في الخليج العجميّ فتختلط مياههُ العذبة بالماء الملح . وهناك على العدوة اليمنى بلدة فاو وهي عبارة عن قلعة للدولة العليّة تحرسها فرقة من الجند وحولها بعض ابنية للجمرك والتلغراف وبيوت

قلعة لعرب تلك الناحية مع بعض الاشجار التي تظللها . وللانكليز في فاو مركز تلغرافي متصل بالهند ويمتد من فاو برًّا الى الاستانة ومنها الى اوربا . وقلعة فاو شيدها الاتراك لمراقبة حركات الانكليز في تلك الجهات ولمزاحمة تجارة العجم في المحمرة . وعند مصبّ شطّ العرب كانت قديمًا مدينة عبادان التي خربت اليوم كان يسكنها على ما قيل عرب النصارى المعروفين بالعباديين فسُمّيت باسمهم عبادان

وقد تأكد الاثريون انّ بحر العجم كان يتّصل في القرون السالفة الى جهات بغداد فالنهران دجلة والفرات لم يزالا يأتيان بتربة يسحبانها في سيرهما حتى تكوّنت بها اراض جديدة غاية في الخصب

ولم نُطل الاقامة في فاو فسرنا في خليج العجم الذي يفصل بلاد فارس من جزيرة العرب . فمررنا في مساء النهار قريبًا من قضاء الكويت من اقضية ولاية البصرة التي يتولّى شؤونها الشيخ مبارك الصباح فكاد ان يستقلّ بتدبيرها وتدبير نواحيها بمساعدة الانكليز . ولحضرة الاب انستاس في المشرق سنة ١٩٠٤ (٧ : ٤٤٩-٥٠٧) مقالة مستجادة في الكويت وكافّة احوالها لولا انّ مراقبة المطبوعات في ذلك الوقت اسقطت منها قسمًا كبيرًا

اصبحنا في غدٍ ونحن خائضون بحر العجم وكان ذلك اليوم موافقًا للاحد ٨ ك ١ وفيه عيد الحبل بالعذراء مريم بلا دنس فنصبنا مذبحنا النقّال في احدى غرف السفينة التي تلطّف ربّانها وسمح لنا بها وقدّمنا الذبيحة المقدّسة ذكرًا لتلك التي تدعوها الكنيسة كوكب البحر وكان البعض من ملّاحي السفينة اصلهم من البورتغال وهم يدينون بالدين الكاثوليكيّ فدعوناهم لاستماع القدّاس فاجابوا بارتياح الى دعوتنا واظهروا من التقى ما اوقفنا على حسن ايمانهم

وبعد طلوع الشمس بمدّة ارست سفينتنا عند مدينة من العجم اسمها بوشهر قضينا امامها بقيّة يومنا . وبوشهر هذه مدينة تجاريّة ليس فيها ما يستحقّ الذكر لكنّ تجارتها واسعة لكونها فرضة شيراز والسفن الانكليزيّة تتردّد اليها من الهند فتنقل منها محصولات العجم . ومنها أبحرَ معنا سائحان المانيّان كانا تجوّلا في جهات العجم وكان قصدهما ان يعودا الى اوربّة على طريق بغداد وما بين النهرين لكنّهما اذ سمعا بما جرى هناك من الفتن عدلا عن طريقهما فقصدا الهند . وكذلك ركبت

السفينة سيّدة انكليزيّة تدعى مس تنّر (Miss Tanner) كانت قطعت وحدها اقطار العجم مع خادمة وطنيّة لتؤلف كتاباً عن تلك البلاد

ومن بوشهر عادت سفينتنا مغرّبة تقطعت عرضاً الخليج العجميّ الى جزائر البحرين وهذه الجزائر يقطنها نحو خمسين الفاً من العرب يرتزقون كلّهم من صيد اللآلئ . وكان موسم صيد اللؤلؤ قد انتهى يوم وصولنا وهو يدوم من اواسط نيسان الى اواسط تشرين الاوّل . وقد وصف حضرة الاب انستاس مغاصهم بكل ظروفه في مقالته عن الكويت (المشرق ٧ : ٥٠٧) فلتُراجع

وهذه جزائر البحرين كان اهلها قديماً نصارى كما اثبتنا ذلك في مقالاتنا عن النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة ولا يزال بينهم آثار من دينهم القديم كعادة اكرام الصليب . وتُرى الى اليوم بقايا كنائس كانت هناك سابقاً ولانكلترة النفوذ في تلك الجزائر حتى انّ البعض يعدّونها من املاك الانكليز

وكنّا مدّة سيرنا في بحر العجم نعاين ما لبريطانية العظمى من النفوذ في تلك الجهات فانّ اربعة اخماس المراكب التي كنّا نصادفها كانت انكليزيّة وكفى بذلك دليلاً على تقدّم تلك الدولة في جهات العجم حتى بغداد التي فيها يُقيم طول السنة طرّاد انكليزيّ للدفاع عن مصالح الجالية الانكليزيّة . فانكلترة سلطانة الخليج العجميّ بلا منازعة

وفي البرّ الذي وراء البحرين بلاد الاحساء العربيّة المعدودة من نجد والدولة قد جعلتها سنجقاً لاحقاً بولاية البصرة مركزه مدينة الاحساء المعروفة ايضاً بالهفوف يبلغ عدد اهلها نحو ١٢٠٠٠ واهل نجد يرتزقون بالنخل وبصيد الاسماك والغوص على اللؤلؤ ولهم المواشي الكثيرة وضروب الخيل الجياد . ومن مدن نجد المذكورة في عهدنا القطيف وقطر . واهل نجد من الشيعة الوهابيّة التي ظهرت في تلك البلاد منذ نحو ١٢٠ سنة وتفاقمت حركة انصارها حتى خافت الدولة على سلطتها ولا تزال النار حتى الآن كامنة تحت الرماد . وتعصّبهم الدينيّ بالغ مبلغهُ لا يدعون اجنبيّاً يسكن بينهم وقلّ من امكنهُ من سيّاح الفرنج ان ينفذ في وسطهم ليعرف بلادهم . وليس للتعليم بينهم نصيب الّا بعض الكتاتيب الابتدائية القليلة

وصلنا في صباح يوم الاربعاء ١١ ك ١ الى لنجه من مدن فارس الساحليّة

المفتوحة لتجارة العجم وهي حسنة الموقع كثيرة البساتين الّا انّ حركتها التجاريّة دون حركة بوشهر . واهمّ من ثلجه مدينة بندر عبّاس التي بلغنا اليها في اليوم التالي . وهذه المدينة كانت تدعى كمرون فلمّا اختارها الملك شاه عبّاس في اوائل القرن السابع عشر كفرضة لبلاد كرمان انتسبت اليه وموقعها قريب من مضيق هرمز وفيها تباع بضائع العجم لا سيّما الصمغ العربي والطنافس الغالية الثمن والشالات والانسجة العجميّة والصاغات المختلفة ولقربها من جزيرة العرب يقبل على بضائعها عرب عُمان واليمن . واهلها نحو عشرين الفاً . وللانكليز بازائها جزيرتان صغيرتان اسمها كشم ولارك ارادت ان تحصّنهما ثم اهملتهما لاحتدام حرّهما في الصيف

ومن بندر عبّاس دخلت السفينة في مضيق هرمز الذي يوصل خليج العجم ببحر عُمان . وهرمز جزيرة في شماليّ المضيق لا يزيد اليوم اهلها على ٥٠٠ وكانت قديماً كبيرةً عامرةً ترتقي اليها المراكب وتنقل اليها امتعة الهند فتُرسل الى كرمان وسجستان وخراسان فاستولى عليها البرتغاليّون في القرن السادس عشر . ودخلها المرسلون اليسوعيّون وكان اوّلهم الاب غسبار برزه (G. Barzée) في عهد القديس فرنسيس كسفاريوس فنشر فيها الدين الكاثوليكيّ . ثمّ غلب الانكليزُ البرتغاليين في القرن السابع عشر واخربوا المدينة (له بقيّة)

النار العجيبة في القبر المقدّس

نبذة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي

طلب منّا جناب صديقنا الدكتور اغناطيوس كراتشكوفسكي نزيل بيروت سابقاً ان ننقل لهُ ما كتبهُ العرب في امر النار العجيبة التي توقد كلّ سنة في القبر المقدّس يوم سبت النور على موجب الكلندار الشرقيّ القديم . فاجابةً الى سؤلهِ ندوّن هنا شيئاً من اقوال العرب في هذا الصدد بل نتسع قليلًا في هذا الموضع زيادةً للافادة

أنها لعادةٌ تترقَّى الى قرون النصرانيَّة الاولى ان تُقام في يومين عيد الفصح وسبت الجمعة العظيمة المعروف بسبت النور رتبةٌ شاعت في كنائس الشرق والغرب تُدعى برتبة النار الجديدة. كان كل المصابيح والمشاعل في يوم جمعة الآلام تُطفأ اشارةً الى حداد البيعة المقدَّسة على عرسها الالهي الذي مات فداءً عن ابنائها. ففي مساء ذلك السبت كان المؤمنون يجتمعون في الكنائس ليحيوا الليل في الصلاة واوَّل ما كانوا يُقدمون عليه ان يستوروا نارًا جديدة لم يشادوا ان يأخذوها من نار عاديَّة سابقة مبتذلة بالاستعمال بل كان يستورونها قدحًا بالزِّند وقد وجدوا في ذلك رمزًا مشارًا اليه في الاسفار المقدَّسة اذ قال السيّد المسيح انَّهُ الحجر الذي رذلهُ البنَّاؤون فصار رأسًا لزاوية البناء. الاذلي الذي جاء ليقيمهُ في العالم لمجد ابيه. ومن هذا الحجر عينه اذ قُدح بالآلام تأتينا تلك النار الالهيَّة التي انارت العالم وطهَّرت النفوس واضرمت القلوب بمحبَّته تعالى

فاذا اوقدت هذه النار باركوها وألقوا فيها البخور ثمَّ يستوقدون منها كلَّ المصابيح والاسرجة الكنائسيَّة بل يتبارك المؤمنون بها فينقلونها الى منازلهم. واخصُّ هذه المشاعل الشمعة المرونقة بالفصحيَّة يُوقدونها برتبة جميلة ويوقدونها في الحفلات العموميَّة طول مدَّة الزمن الفصحي اعني اربعين يومًا رمزًا الى اقامة السيّد المسيح اربعين يومًا على الارض بعد قيامته حتى اذا دخل عيد الصعود اطفأوها بعد قراءة الانجيل المخبر بارتفاع السيّد المسيح الى السماء

ولا شكَّ انَّ تلك رتبة النار الجديدة كانت تتم بحفلة شائقة في كنيسة القبر المقدَّس التي شيَّدتها القديسة هيلانة بعد قدومها الى اورشليم وبحجّها الدقيق عن الامكنة التي قدَّسها فيها ابن الله ذبيحتهُ الدمويَّة لخلاص العالم. فكان المؤمنون في وقت الفصح يتواردون الى القدس الشريف ليكرموا آلام المسيح وقيامتهُ في نفس الامكنة التي تمَّت فيها تلك الاسرار المحيية وكانوا اذا رأوا النار الجديدة استبشروا بها واقتبسوا من انوارها لهم ولذويهم ولا نرى احدًا منهم يصرّح بظهور تلك النار على طريقة عجيبة

واوَّل شهادةٍ تاريخيَّة ثابتة وردت مدوَّنة في كتب الاقدمين هي شهادة لسائح فرنسويّ يُدعى برندوس الراهب (Bernardus Monachus) قدم من

بلاده الى الاراضي المقدسة نحو سنة ٨٦٥ الى ٨٧٠ وقد طُبعت رحلته في اصله اللاتيني غير مرة. اطلب مجموع الآباء اللاتينيين لين Migne. P. L. CXXI, (569-576 n° 10 ففي الفصل العاشر من هذه الرحلة يقول ما تعريبهُ :

« وفي السبت المقدس الذي هو يوم عيد الفصح يُتلى صباحاً في كنيسة القبر المقدس القرم الالهي وفي اثره يترنّمون بالكيرياليسون الى ان ينحدر الملاك فيوقد النور في المصابيح المعلّقة فوق القبر المذكور ومن نوره يوزّع السيد البطريرك للاساقفة ولبقيّة الشعب لكي يستنير كل واحد وينقلهُ الى بلاده. وكان اسم البطريرك المذكور ثاودوسيوس وهو رجل عظيم القدر كان راهباً في ديره المبتعد عن القدس ١٥ ميلاً النظم فضله اختطفهُ النصارى مرغوماً ليقيموهُ عليهم بطريركاً »

فهذه الرواية لمؤرخ فاضل معروف بتقواهُ تبيّن انهُ لم يُرد ان يخدع مواطنيه وانهُ يعتبر ظهور النور يوم سبت النور في كنيسة القبر كمعجزة الهيّة. وكما لا يمكننا ان ننسب اليهِ المكر والخداع كذلك لا يجوز ان ننسب التدليس الى البطريرك الاورشليمي ثاودوسيوس الذي عرفهُ الراهب واطرأ فضائلهُ. وترجمة هذا البطريرك واردة في كتاب الشرق المسيحي للوكيان (Lequien Oriens Christianus, III, 370) وذكر من اعمالهِ ما يؤيد برّهُ وقداستهُ وقد ارسل الى القسطنطينيّة الكاهن الياً فحضر هذا باسمهِ المجمع الذي قرّر حقوق القديس اغناطيوس وحرم فوطيوس الدخيل سنة ٨٦٧ وامضى اعمال المجمع كنائبهِ (ib, 372). والمؤرخ برنردوس يذكر الاعجوبة كشيء عادي يجري في كنيسة القبر المقدس كل سنة (١

فهذه الشهادة يردّدها الكتبة اللاتينيون الذين سبقوا عهد الصليبيين كغليوم مالمسبوري (Guilelmus Malmesburgensis: *Gesta reg. Angl.* l. IV, c. 367) ثم هلينند (Helinand : *Chron*. l. 47) ثم ألبريك (Alberic, Pertz M. G. SS. XXIII) ثم فنسان دي بوفه في كتابهِ الشهير مرآة التاريخ (Vincent de Beauvais : *Sepc. hist*. l. XXV, c. 103) ثم ريشرد نعمة الله

---

١) وقد نشر اصحاب سجلّات الشرق اللاتيني (Archives de l'Orient Latin. I, 375) رواية يونانية في نار القبر المقدس العجيبة لكاتب يُدعى نيقيطاس كتبها للملك الروم قسطنطين السابع المدعو برفيروجنيت في نيسان سنة ٩٤٧ الا انَّ ناشريها مرتابون في صحتها فلم نذكرها

سنة ١٠٢٧ (Richard de la Grâce de Dieu, cfr. *Vogüé. les Eglises de Terre S^{te}*, 427) ثم في رحلة اودوريك لسقف اورليان (Rad. Glaber: *Chron.* l. IV, c. 6) وفيها روى اوذوريك المذكور انهُ ابتاع لكنيستهِ من بطريرك القدس القنديل الذي ظهر فيهِ النور قبل سواه. والبابا اوربانوس الثاني قد اشار الى هذه الاعجوبة في خطابهِ الذي القاهُ في كلرمون ليحضَّ فيهِ النصارى على الجهاد الصليبيّ ليستولوا على الاراضي المقدَّسة

امَّا في عهد تملُّك الصليبيين على القدس الشريف فالشواهد على ظهور النور في كنيسة القبر المقدَّس متعدِّدة منها شهادة موريقيوس نائب البابا بسكال الثاني اخبر انهُ حضر اعجوبة النار المقدَّسة في ٢٠ نيسان سنة ١١٠١ ومنها شهادة فوشه دي شرتر نحو السنة ١١٠٢ م (Foucher de Chartre: *Gesta peregr. Francorum*, ch. XXIV) ثم دانيال الروسي سنة ١١٠٦—١١٠٧ فانَّ هذا في كتاب رحلته (Daniel, Hégoumène russe: *Pèlerinage*, c. 97, p. 75, éd. 1889) اخبر انهُ وضع باذن ملك اورشليم بلدوين (Baudouin) سراجهُ على قبر المسيح مع اسرجة الملكيين ورهبان دير مار سابا ثم قال: « فاتَّقدت تلك الاسرجة الموضوعة على القبر امَّا اسرجة الفرنج المعلَّقة فوقهُ فلم تُسرَج » وقد قدَّم هذا الكاتب على فصلهِ مقدَّمة انتقاديَّة قال فيها انهُ يُروى عن هذه النار العجائبيَّة امور غريبة ليست هي صحيحة منها قولهم انَّ الروح القدس ينزل على هذه الاسرجة على صورة حمامة فيوقدها ومنها قول غيرهم بانهُ ينزل من السماء برقٌ فيسرجها . قال الهيغومان: كلّ هذه الروايات لا صحَّة لها وانَّما تتَّقد هذه الاسرجة بنعمة الله . ثمَّ يروي ما شهدهُ بالعيان كما مرَّ

فنكتفي بهذه الشواهد لكتبة الفرنج القدماء التي تثبت امر نور القبر المقدَّس في يوم سبت النور . وليس بين الرواة من يرتاب في صحَّتها . الَّا أن يقال بانَّهُ وُجد بين اصحاب كنيسة القبر المقدَّس اناسٌ خبثاء احتفظوا سرَّ خداعهم دون ان يبوحوا بهِ الى غيرهم تدليساً او طمعاً والله اعلم باسرار القلوب

*

فلنأتينَّ الآن بشواهد كتبة العرب الذين ذكروا هذا الامر . وما لا ريب فيهِ

انّهُ لم يوجد بينهم احد انكر ذلك قبل القرن الحادي عشر فانّ المؤرخين والجغرافيين الذين سبقوا ذلك العهد كابن خردادبه والبكري وناصر خسرو لم يذكروا شيئاً من هذا

واقدم ما نعرفهُ من شواهد العرب في النار الظاهرة في كنيسة القيامة يوم سبت النور شهادة ابي الحسن عليّ المسعوديّ المتوفى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) مؤلف مروج الذهب في كتابهِ التنبيه والاشراف المطبوع في ليدن سنة ١٨٩٣ فقال (ص ١٤٣) في هيلاني ام قسطنطين الملك:

« وبنت هيلاني بايليا الكنيسة المعروفة بالقيامة في هذا الوقت الذي يظهر منها النار يوم السبت الكبير الذي صبحهُ الفصح »

فهذا الكلام لا يشعر بخبث او مكر او شعوذة وانّما المؤلف يصرّح بالامر كانّهُ يصدّق بوقوعهِ. لكنّ المسعودي في كتاب مروج الذهب (٣: ٤٠٥) ذكر الامر على وجه آخر فقال:

وخمس منهُ وهو تشرين الاوّل عيد كنيسة القامة (كذا) ببيت المقدس وفي هذا العيد تجتمع النصارى من سائر الارض وتنزل عندهم النار من السماء فتُسرج هنالك الشمع ويجتمع فيهِ من المسلمين خلقٌ عظيم للنظر الى هذا العيد ويُقلَع فيهِ ورق الزيتون وتكون للنصارى فيهِ اقاصيص. ولهذه النار حيلة لطيفة وسرٌّ عظيم قد ذكرنا وجه الحيلة في ذلك في كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب

وهي رواية غريبة اذ لا نعرف احداً غير المسعودي روى انّ ظهور النار في كنيسة القيامة كان يحدث في ٥ تشرين الاوّل لا في السبت الكبير. امّا كتابهُ القضايا والتجارب فهو مفقود

والشهادة الثانية بعد المسعودي قد وردت في كتاب ابن القلانسيّ الذي عنوانهُ كتاب ذيل تاريخ دمشق وبين مؤلفهِ والمسعوديّ السابق ذكرهُ مئتا سنة بنيّف لأنّ وفاة ابن القلانسيّ وقعت سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٢ م) فقال في كتابهِ المطبوع في مطبعتنا (ed. Amedroz, p. 66-67) انّ الحاكم بامر الله رأى في تاريخ سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٨ م عدداً كبيراً من نصارى مصر خرجوا ليحضروا الفصح في بيعة القيامة (والمسلمون يدعونها بالقمامة تعصُّباً) قال:

فسأل الحاكم ختكين العضدي الداعي وهو بين يديهِ عن امر النصارى في قصدهم هذه البيعة

وما يعتقدونهُ فيها واستوصفهُ صفتها وما يدّعونهُ لها وكان ختكين يعرف امرها بكثرة ترددهِ الى الشام . . . فقال : هذه بيعة تقرب من المسجد الاقصى تعظّمها النصارى افضل تعظيم وتحجّ اليها عند فصحهم . . . فاذا حضروا يوم الفصح فيها . . . يعلّقون القناديل في بيت المذبح ويحتالون في إيصال النار اليها بدهن البلسان وآلتهِ ومن طبيعتهِ حدوث النار فيهِ مع دهن الزنبق ولهُ ضياء ساطع وازهار لامع يحتالون بحيلة يسلوكها بين كل قنديل وما يليهِ حديدًا ممدودًا كهيئة الخيط متّصلًا من واحد الى آخر ويطلونهُ بدهن البلسان طليًا يخفونهُ من الابصار حتى يسري الخيط الى جميع القناديل . . . ويتوصّل بعض القوّام الى ان يقرّب النار من الخيط فاذا صلّوا وحان وقت النزول فُتح باب المذبح وعندهم انَّ مهد عيسى عليهِ السلام فيهِ وانهُ عُرج بهِ الى السماء منهُ ودخلوا واشعلوا الشموع الكثيرة واجتمع في البيت من انفاس الخلق الكثير ما يحمى منهُ الموضع ويتوصّل بعض القوّام الى ان يقرّب النار من الخيط فيعلق بهِ ويتنقل بين القناديل من واحد الى واحد ويشعل الكل ويقدّرهُ من يشاهد ذلك انَّ النار قد نزلت من السماء فاشتعلت تلك القناديل »

ثم يخبر المؤلف بامر الحاكم ان تُهدم الكنيسة قال : « فهدمت ابنيتها وقُلعت حجرًا حجرًا . . . وشاع هذا الخبر بمصر فسُرَّ المسلمون بهِ ودعوا للحاكم دعاءً كبيرًا على ما فعلهُ » . فترى من هذه الرواية ما نقلهُ ختكين العضدي للحاكم بامرهِ . الّا ان في روايتهِ ما لا يُصدَّق . فان كان الحديد ممدودًا بين القناديل مع الخيط المطليّ بالبلسان فكيف لم يشاهدهُ احد من الحضور وكيف لم يظهر الخداع . وكذلك اخطأ ختكين بقولهِ « انَّ مَهْد عيسى في المذبح » وانَّ « عيسى عُرج بهِ منهُ الى السماء » فكفى بهذا دليلًا على انَّ روايتهُ غير مثبتة وانهُ رمى الكلام على عواهنهِ

والشاهد الثالث على الامر هو زين الدين عبد الرحيم الدمشقيّ الشهير بالجوبريّ المتوفّى نحو السنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) فعاش بعد فتح صلاح الدين للقدس وخروج الفرنج منها سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وللجوبري كتاب « المختار في كشف الاسرار » الذي أتينا في وصفهِ في المشرق السنة ١٩٠٩ (١٢ : ١٨٦ و٣١٦) وقد روينا عنهُ هناك (ص ١٩٣) ما ذكرهُ من « خدعة الرهبان في ايقاد النور في كنيسة القيامة » . وهذا قولهُ بالحرف عن نسختين قديمتين في مكتبتنا (ص ٥٨ و١١٩) قال في باب « كشف اسرار الرهبان » :

« اعلم ان هؤلاء القوم اعظم ناموس لهم قنديل النور في كنيسة قامة من بيت المقدس وهو من عمل الرهبان وقد ارتبط عليهِ جميع النصارى واباطمهم واجناسهم . وقد كان الملك المعظَّم ابن الملك العادل دخل الى القامة يوم سبت النور فقال للراهب الذي بها : لا ابرحُ حتى ابصر

هذا النور كيف ينزل . فقال لهُ الراهب : إنما احب الى الملك هذا المال الذي يتحصّل لك من هذا الوجه او اطّلاعك عليهِ فاني ان كشفتُ سرّهُ عدم السلطانُ هـذا المال فاتركهُ مستوراً واربح هذا المال العظيم . فلمّا سمع السلطان ذلك فهم باطن امره فتركهُ على حالهِ . وذلك انّ هذا القنديل هو اعظم النواميس التي وضعها الاوائل وها انا ابيّنهُ واكشف سرّهُ . وذلك انّ له في رأس القبّة حقّاً من حديد متّصلاً بالسلسلة التي هو معلَّق فيها وهو مُهندم في هلال القبّة لا يطّلع عليهِ احد غير الراهب والسلسلة لها حقّ وفيهِ خلوٌ فاذا كانت ليلة سبت النور صعد الراهب الى الحقّ وجعل فيهِ مطبوخ الكبريت على مثال السنيوسكة وعمل تحتها نارًا موقتة الى الساعة التي يريد ان ينزل فيها النور ويدهن السلسلة بدهن البلسان فاذا جاء الوقت أُوقدت النار نقطة المطبوخ على رزّة السلسلة في ذلك الحقّ المهندم فاشتدّ من تلك النقطة دهنُ البلسان وجرى مع السلسلة نازلاً الى القنديل تتعلق النار في فتيلة القنديل وتكون مسقيّة اولاً بدهن البلسان فتوقدها فافهم ذلك »

قلنا ما اعظم الفرق بين هذه الرواية والرواية السابقة حتى لا تكاد تجد بينهما توافقاً البتّة . ونتعجّب من قول الجوبري بانّ جميع النصارى قد ارتبطوا على امر هذا القنديل ثمّ من قولهِ بعدهُ انّ ذلك الراهب وحدهُ يعرف بسرّهِ وهو لا يذكر غير قنديل واحد لا قناديل عديدة كما قال ختكين . فنشكّ اذن بصحّة روايته ومطابقتها للواقع

وها نحن نأتي بشاهد رابع يظهر من كلامهِ ما هو اقرب الى الصحّة لا سيّما انّهُ يتكلّم كشاهد عيانيّ نريد به السبط بن الجوزيّ المتوفى بعد الجوبري بزمن قليل سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م) قال في تاريخهِ مرآة الزمان ما ننقل هنا بعضهُ (راجع حاشية كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسيّ ص ٦٨) قال :

« سكنتُ في بيت المقدس عشر سنين وكنتُ ادخل الى القمامة في يوم فصحهم وغيره وبحثتُ عن اشعال القناديل في يوم الاحد (كذا) عيد النور وفي وسط القمام (كذا) قبّة فيها قبر يعتقد النصارى انّ المسيح عليهِ السلام لمّا صُلب دُفن فيهِ ثمّ ارتفع الى السماء . فاذا كان ليلة السبت في السحر دخلوا الى هذه القبّة فغسلوا قناديلها ولهم فيها طاقات مدفونة في الرخام وفي الطاقات قناديل قد اوقدوها من السحر والقبّة شبابيك فاذا كان وقت الظهر اجتمع اهل الدين من النصرانيّة وجاء الاقسّاء . فدخلوا القبّة وطاف النصارى من وقت الظهر حولها يتوقّعون نزول النور فاذا قارب غروب الشمس تقول الاقسّاء : « انّ المسيح ساخط عليكم » فيضجّون ويبكون ويرمون على القبر الذهب والفضّة والثياب جملة كثيرة . . . فاذا غربت الشمس اظلم المكان فيتناولها بعض الاقسّاء ويفتح طاقةً من زاوية القبّة بحيث لا يراهُ احد ويوقد شمعته من بعض القناديل ويصيح : قد نزل النور ورضي المسيح . وتخرج الشمعة من بعض

الشبابيك فيضجون ضجة عظيمة ويوقدون القوانيس ويحملون هذه النار الى عكاً وصور وجميع بلاد الافرنج حتى رومية والجزائر وقسطنطينية وغيرها تطيباً لها »

فهذه الرواية على رأينا اقرب الى الصدق وكأنها حكاية حال ما يحدث كلّ سنة في القدس الشريف على يد الروم الاورثذكس والارمن النرينوريين وهي تخالف رواية ابن القلانسي والجوبري كما ترى . لكنّ ابن الجوزي لردف كلامهُ برواية الخبر السابق ذكرهُ من الملك المعظّم ابن الملك العادل فيرويهِ عن صلاح الدين نفسهِ كأنهُ جرى بين صلاح الدين وبطرك اورشليم . فالله اعلم بأصدق الخبرين

ويلي ابنَ الجوزي شاهد خامس وهو زكرياء بن محمّد القزوينيّ المتوفى ايضاً كالجوبري وابن الجوزي في القرن السابع للهجرة والثالث عشر للمسيح سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣م) قال في كتابهِ آثار البلاد (ed. Wüstenfeld, p. 109) في جملة ما كتبهُ عن بيت المقدس :

« وبها (اي بيت المقدس) قمامة وهي كنيسة عظيمة للنصارى في وسط البلد لا ينضبط صفتها حسناً وعمارةً وتنميقاً وكثرة مال . في موضع منها قنديل يزعمون انّ نوراً من السماء ينزل في يوم معلوم ويشعلهُ وهذا امرٌ مشهور عندهم . حُكي انّ بعض اصحاب السلطان ذهب اليها ذلك اليوم وقال : انّي اريد ان اشاهد نزول هذا النور فقال لهُ القسّ : ان مثل هذه الامور لا تخفى على امثالك . لا تُبطلْ ناموسنا فانّا نُشبه على اصحابنا الشيئة امرنا فتجاوزْ عنهُ »

فانظر رعاك الله هذا الاختلاف بين الروايات . وكيف نسب القزوينيّ الى بعض اصحاب السلطان ما رواهُ الجوبري عن الملك المعظّم وابن الجوزي من صلاح الدين

واما شاهد سادس في اواخر القرن السابع نفسهِ ألا وهو ياقوت الرومي الشهير المتوفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٩٧ م) ففي مادة « قمامة » من كتابهِ معجم البلدان (ed. Wüstenfeld, ١٧٢ : ٤) روى ما يشبه بعضهُ نصّ القزوينيّ قال :

« ولهم في موضع منها (يريد كنيسة القيامة) قنديل يزعمون ان النور ينزل عليهِ من السماء في يوم معلوم فيشعلهُ . وحدّثني مَن لازمهُ وكان من اصحاب السلطان الذي لا يمكنهم منعهُ حتى ينظر كيف امرهُ وطال على القسّ الذي يرشو امرهُ (قال) فقال لي : ان لازمتنا شيئاً آخر ذهب ناموسنا . قلتُ : كيف . قال : لانّا نشبه على اصحابنا باشياء نعملها لا تخفى على مثلك واشتهي ان تُغنينا وتخرج . قلتُ : لا بُدّ ان ارى ما تصنع . فاذا كتابٌ من التبرغيات وجدتهُ مكتوباً فيهِ انهُ يقرّب منهُ شمعة فتعلّق بهِ بتةً والناس لا يرونهُ ولا يشعرون بهِ فيعظم عندهم ويطيعون »

ولعلّ الذين اتوا بعد هؤلاء من كتبة المسلمين وذكروا نور السبت الكبير نقلوا مع بعض التصرّف عن الذين اثبتنا اقوالهم كابن العربي والحاج خليفة وعجير الدين الحنبلي. ودونك رواية عجير الدين المتوفى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) في كتابهِ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل قال (طبعة مصر ١: ٢٦٨):

« وممّا وقع بيت المقدس في شهور سنة ٣٩٨ (١٠٠٨ م) ان الحاكم بامر الله ابو علي المنصور بن العزيز الفاطمي امر بتخريب كنيسة القمامة من بيت المقدس واباح للعامّة ما كان بها من اموال وامتعة وغير ذلك. وكان ذلك بسبب ما أُنهي اليهِ من الفعل الذي تتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التي يحتالون بها بحيث يتوهّم الاغمار من جهلتهم انّها تنزل من السماء وانّها مصبوغة بدهن البلسان في خيوط الابريسم الرقاع المدهونة بالكبريت وغيره بالصنعة اللطيفة التي تروج على الطغام منهم والعوام وهم الى الآن يستعملونها في القمامة ويسمّى ذلك اليوم عندهم سبت النور... »

وفي هذا الزمان على التقريب كان احمد بن الحريري صاحب منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والاعيان ومن كتابهِ نسخة في مكتبتنا. ففي تاريخ سنة ٣٩٨ هـ ذكر هدم الحاكم بامر الله لكنيسة القيامة واشار الى قصّة خُتكين مع الخليفة الفاطمي في صددها. لكنّهُ ينعت هناك ختكين « بالظالم الغشوم الفاتك السفّاك للدماء » فأضعف بذلك الثقة في قولهِ

فهذا ما ورد في كتب المؤرّخين المسلمين في امر نور السبت الكبير. امّا اوّل النصارى الذي اشتمّ من هذا النور رائحة الخداع فهو ابن العبري في تاريخهِ الدني السرياني الذي اختصرهُ بعد ذلك وعرّبهُ. ففي ذكرهِ لاعمال الحاكم بامر الله روى خراب كنيسة القيامة على يدهِ ونسب الامر الى نور السبت الكبير الذي كان يتزله البعض مكرًا من سقف كنيسة القيامة الى القنديل الذي فوق القبر

وان طلب الينا القارئ ان نبدي في اقوال الكتبة رأينا اجبنا انّهُ من المحتمل بل من المرجّح انّ هذه الاعجوبة ظهرت مرّة او مرارًا في القرون الوسطى اذ لا يمكننا ان ننسب الخداع او الجهل لعلماء عقلاء يؤكّدون انهم عاينوا الامر ووصفوهُ على طريقة لا تبقي مجالًا للريب ومحلًّا للغشّ

وعلى كلّ حال لا بُدّ من القول انّ هذه الاعجوبة قد بطلت منذ عدّة قرون فالتجأ اذ ذاك بعضُ ذوي الغايات الى الشعوذة امّا رغبةً في زيادة حرص النصارى

على زيارة القبر المقدّس واماً طمعاً في حطام الدنيا . وكلتا الغايتين ذميمة اذ لا يجوز صنيع الشرّ لينتج من ذلك خير

وكذلك ابدينا استياءنا سنة ١٩٠١ (في المشرق ٤: ١٩٣-١٩٤) من تسامح ارباب الروم في التمويه على الزُوّار كلّ يوم السبت الكبير اذ يقيمون رتبة النار الجديدة ويظهرونها للحضور كأنها نار سماويّة . ونقلنا هناك (ص ١٩٤) كلام السيّد رفائيل الهواويني صاحب مجلّة الكلمة حيث ينكر على زعماء طائفتهِ ما يصنعونهُ ليثبتوا ظنّ الناس في اعجوبة لا صحّة لها وهو كلام رجل عاقل يسوؤه ان ينسب الغرباء الزورَ والخداع الى طائفتهِ . وكذلك نشرنا في السنة عينها (المشرق ١٢ : ٣١٦) رسالة للخوري الياس شهوان في سلخ اذار سنة ١٨٧٦ وصف فيها تلك الخدعة كما عاينها وهو كاهن يعقوبيّ يمثّل طائفتهُ مع مطراني الروم والارمن الغريغوريين في داخل القبر المقدَّس . وبهذا الكفاية عن هذا النور المزور انار الله بنور هدايتهِ جميع الضالّين

البرهان الصريح

في اثبات أُلوهيَّة المسيح

ردًّا على مجلَّة المنار للاب لويس شيخو اليسوعي

النبوّات عن مجيء المسيح وتعريف شخصهِ الكريم (تابع)

وقد اثبت موسى نبوّةً منطق بها الله ساحرًا استقدمهُ احد اعداء بني اسرائيل ليلعن شعب الله فلم يستطع الّا ان يبارك الّا وهو بلعام نطقَ بالبركة مرغوماً وبارك نسل يعقوب وتنبّأ بالمسيح الذي يخرج منهُ قائلًا (عدد ٢٤ : ١٧) : « يسعى كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من اسرائيل فيحطّم طرفَيْ موآب ويربح جميع بني شيث »

ولم يقم بعد موسى رجل اعظم من الملك داود بن يسّى واليهِ اوحى الله مرارًا انّ فيهِ تتمّ المواعيد التي وعد بها يعقوب ابنهُ يهوذا وكان داود من سبطهِ . فجاءهُ ناثان

النبي (٢ ملوك ٧ : ١٦—٢٠) واعلمهُ بانَّ ابنهُ سليمان سيبني لهُ هيكلًا وانَّ ملكهُ لن يزول الى الابد فقال : « اقيم من بنيك من نسلك الذي يخرج من صلبك واقررتُ ملكهُ فهو يبني بيتاً لاسمي وانا اقرُّ عرشهُ الى الابد . . . ويكون بيتك وملكك ثابتين الى الدهر امام وجهك وعرشك يكون راسخاً الى الابد ». وهذا الوعد قد كرَّرهُ لهُ الرب مراراً واثبتهُ لهُ بالأيمان في المزامير كقولهِ تعالى (مز ٨٨ : ٢٠—٢٨) : « وجدت عبدي داود . بدهن قداستي مسحتهُ . معهُ تثبت يدي وذراعي تؤيدهُ . . . الى الابد احفظ لهُ رحمتي . اجعل نسلهُ الى الابد وعرشهُ مثل ايام السماء . . . حلفتُ بقداستي ولا اكذب على داود ليدومنَّ نسلهُ الى الابد وعرشهُ . . . راسخاً الى الابد ». فقول كهذا من فم الله صريح واضح مؤيد بالأقسام المحرجة لم يتحقق الّا في ذاك الذي قال عنهُ الملاك لمريم (لوقا ١ : ٢١—٢٣) : « ستلدين ابناً وتسمينهُ يسوع . . . وسيعطيه الربّ الاله عرش داود ابيهِ . . . ولا يكون لملكهِ انقضاء »

وتوالت الانبياء بعد داود وكرَّرت مواعيد الله اسرائيل بحيث لم يبقَ فيها موضع للريب فناء اشعيا (٧ : ١٤) بتلك الآية التي طنَّت لها آذان الملك آحاز وكل بني اسرائيل بل دوت لها مسامع البشر قاطبةً : « يؤتيكم السيد نفسهُ آيةً ها انَّ العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمهُ عمانوئيل ». فهي الآية المعجديّة بل الالهيّة التي دوَّنها الانجيليُّ متّى في اول بشارتهِ (١ : ١٢—٢٣) بعد اعلانهِ بحبل مريم من الروح القدس : « وكان هذا كلّهُ ليتمَّ ما قيل من الربِّ بالنبيِّ القائل : ها انَّ العذراء تحبل وتلد ابناً ويُدعى عمانوئيل الذي تفسيرهُ الله معنا ». وفي القرآن عينهِ ما يؤيد صريحاً نبوءة اشعيا وآيات الانجيليين حيث قال في سورة آل عمران : « اذ قالت الملئكة : يا مريم انَّ الله يبشرك بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين . . . قالت : ربِّ أنى يكون لي ولد ولم يمسني بشر . قال : كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول لهُ كن فيكون » . وقد ورد في كتب اصحاب الحديث (راجع كتاب العرائس للثعلبي ص ٣٢٧ من طبعة مصر سنة ١٢٩٨) ما نصّهُ : ما من مولود الّا والشيطان يمسّهُ حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّ الشيطان الّا مريم وابنها »

ولاشعيا النبي آيةٌ اخرى مثل السابقة صراحةً في كون المسيح هو من نسل داود بن يسّى واضاف اليها صفاتهِ الالهيّة حيث قال (١١ : ١-٥) : « ويخرج قضيب من جذر يسّى وينمي فرع من اصولهِ ويستقرُّ عليهِ روح الربّ روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوَّة روح العلم وتقوى الربّ . . . ويكون العدل منطقةَ حقويهِ والحقّ حزام كشحيهِ »

وجاء في اثر اشعيا ارميا النبيّ مجاراهُ في نبوَّتهِ صدقاً وبياناً فقال (٢٣ : ٥-٦) « ها انها ستأتي ايامٌ يقول الربّ أُقيم فيها لداود نبتاً صدّيقاً ويملكُ ملكٌ يكون حكيماً ويُجري الحكم والعدل في الارض في ايامهِ يخلص يهوذا ويسكن اسرائيل في الدعة وهذا اسمهُ الذي يُدعى بهِ : الربُّ برُّنا »

ولمَّا تفاقمت الشرور على بني اسرائيل وجلا ملوك بابل جموعهم وكادوا ييأسون من الخلاص عاد الربّ فأوحى الى دانيال حقيقة مواعيدهِ وزادهُ علماً على ما انطق بهِ ألسنة اسلافهِ فعرَّفهُ زمن مجيء المسيح المنتظر وكلّ ما سيجري لهُ وكيف يقتلهُ شعبهُ فيُرذَل وتُخرَّب اورشليم فقال (٩ : ٢١-٢٧) :

« بينما كنتُ اتكلَّم بالصلاة اذا بالرجل جبرائيل الذي رأيتهُ في الرؤيا عند البداءة طار مسرعاً ولمسني في وقت تقدمة المساء وبيَّن وتكلَّم معي وقال : يا دانيال اني خرجتُ الآن لأُعلمك فتفهم . . . واتيت لأُخبرك لانك رجل رغائب فتأمَّل الكلمة وافهم الرؤيا . ان سبعين اسبوعاً حُدِّدت على شعبك وعلى مدينة قُدسك لإِفناء المعصية وإزالة الخطيئة وتكفير الاثم والاتيان بالبرّ الابديّ واختتام الرؤيا والنبوَّة ومسح قدُّوس القدُّوسين فاعلم وافهم انهُ من صدور الامر باعادة بناء اورشليم الى المسيح الرئيس سبعة اسابيع واثنان وستُّون اسبوعاً فتعود تُبنى السوق والسور في ضيق الاوقات وبعد الاسابيع الاثنين والستّين يُقتَل المسيح والشعب الذي ينكرهُ لا يكون لهُ . وشعبُ رئيسٍ آتٍ يدمّر المدينة والقدس . . . وفي اسبوع واحد يثبّتُ لكثيرين عهدًا ثابتًا وفي نصف الاسبوع يُبطل الذبيحة والتقدمة وفي جناح الهيكل تقوم رجاسة الخراب . . . »

فأمّا الحقّ هذا تاريخٌ ليس نبوَّة · فانَّ الربَّانيين كانوا مجمعين بانَّ الاسابيع المذكورة هنا هي اسابيع سنين لا سبات ايام كما ورد في سفر الاحبار (٢٥ : ٨) : « واحسبْ لك سبعة سبوت من السنين سبع سنين سبع مرَّات فتكون لك ايام سبوت السنين السبعة تسعاً واربعين سنة » واذ قد عُرفت سنة صدور امر ارتحشستا ببناء اسوار مدينة اورشليم وهي السنة العشرون لملكهِ (نحميا ٢ : ١) الموافقة للسنة

٢٦٦ لبناء رومية فاذا اقتضى ان نضيف اليها مجموع التسعة والستين اسبوعاً سنوياً اي ٤٨٣ سنة فيحصل منها ٧٨٢ سنة لبناء رومية وهي السنة ٣٠ من تاريخنا التي تعمّد فيها المسيح واخذ بالتبشير . وفي نصف الاسبوع السبعين قُتل وأُبطلت الذبيحة اي سنة ٣٣ لتاريخ الميلاد . وكان بعد ذلك ما كان من خراب اورشليم وهيكلها على يد طيطس كما رواهُ المؤرخ يوسيفوس اليهودي

وليس اقلّ صراحةً ونوراً ما نطق بهِ نبيّان آخران اعني حجّاي وملاخي فحجّاي بيّن ما سيناله من الفخر هيكل اورشليم الذي بناهُ زربابل بدخول المسيح مشتهى الامم اليهِ فقال (١ : ٧—١٠) : «هكذا قال ربُّ الجنود انّي مرةً بعدُ عن قليل أزلزل السماء والارض والبحر واليبس وأزلزلُ جميع الامم ويأتي مشتهى جميع الأمم وأملأُ هذا البيتَ مجداً قال ربُّ الجنود» . ومن المعلوم انّ هيكل زربابل قد خرب السنة ٧٠ للميلاد فيتعيَّن على اليهود اما بان يسلّموا بمجيء المسيح الذي شرَّف ذلك الهيكل بدخولهِ فيهِ او ينبذوا نبوَّة حجّاي من جملة الاسفار المقدَّسة التي في يدهم

امّا ملاخي فبيَّن الغاء الذبائح الدمويَّة المقدَّسة في هيكل اورشليم بما سينوب عنها من التقدمة الجديدة على هياكل الكنيسة في المعمور كلّهِ فقال(١ : ١٠—١١) : «انّي لا مسرَّةَ لي بكم قال ربّ الجنود ولا ارضى تقدمةً من ايديكم لانهُ من مشرق الشمس الى مغربها اسمي عظيم في الامم وفي كلّ مكان تُقتَّر وتقرَّب لاسمي تقدمة طاهرة لانّ اسمي عظيم في الامم قال ربُّ الجنود»

فترى انّ هذه النبوّات ضاربةً كلّها على وترٍ واحد فتناصرت على بيان مجي المسيح وتعريف اصلهِ الاوّل من ابراهيم بابنه اسحاق وحفيدهِ يعقوب ثمّ سبط يهوذا بن يعقوب ثمّ فرع داود بن يسّى من سبط يهوذا فكان ذلك امراً تقرَّر في كلّ الاذهان وعرفهُ الخاصّ والعام حتى انّ معاصري المسيح اذ كانوا يلتجئون اليهِ لشفاء اسقامهم وعاهاتهم لم يلتجئوا اليهِ بغير قولهم : «يا يسوع ابن داود ارحمنا» . وكذلك عرَّفتنا تلك النبوّات زمن مجيئهِ وحدَّدت ما سيجري بسببهِ من الانقلابات التي يشهد بصحّتها تاريخ كلّ الكتبة

على انّ نبوّات الانبياء لم تكتفِ بكل ذلك بل أتت بجميع تفاصيل حياة

المسيح وتعريف شخصهِ الكريم واعمالهِ قبل ان يخبر بها الاربعة المبشرون من اوّل ظهوره على الارض الى ما بعد وفاتهِ

فقد شهدت تلك النبوآت على سلسلة نسبهِ الراقي الى داود وابراهيم كما رأيت وكما اثبتهُ الانجيليان متى (١:١-٦) ولوقا (٣: ٣١-٣٤) — وتنبأ ميخا عن مولدهِ الزمني في بيت لحم وهو الازليّ القديم فقال (٥: ٢): «وانتِ يا بيت لحم افراتة أنتِ صغيرةٌ في أُلوف يهوذا ولكن منكِ يخرج من يكون متسلّطاً على اسرائيل ومخارجهُ منذ القديم منذ ايام الأزل» — وسبق قول اشعيا في ولادتهِ من عذراء. وقول حجّاي في دخولهِ الى هيكل زربّابل — وصرّح داود بما روى متى من وفود الملوك عليهِ للسجود لهُ (مز ٧١: ١٠-١١): «ملوك ترشيش والجزائر يحملون اليهِ الهدايا. ملوك شبأ وسبأ يقرّبون لهُ العطايا ويسجد لهُ جميع الملوك وتتعبّد لهُ كل الامم». ومثلهُ اشعيا (٦٠: ١-٦) اذ وصف مجد اورشليم بمسيحها الخارج منها فقال: «قومي استنيري . . . عليكِ يُشرق الربّ ويتراءى عليكِ مجدهُ فتسير الامم في نوركِ والملوك في ضياء اشراقكِ . . . كلهم من شبأ يأتون حاملين ذهباً ولباناً يبشرون بتسابيح الربّ»

وكذلك سبق ارميا (٣١: ١٥) وتنبأ بما يجري من قتل اطفال بيت لحم موطن راحيل كما وصفهُ متى: «هكذا قال الربّ: صوتٌ سُمع بالرامة ندبٌ وبكاءٌ مرٌّ. راحيل تبكي على بنيها وقد ابت ان تتعزّى لأنهم ليسوا في الوجود»

واتّفق الانجيليّون في انّ يوحنّا المعمدان المعدّ لطريق المسيح هو هو الذي اشار اليهِ ملاخي آخر انبياء اسرائيل حيث قال (٣: ١): «ها انذا مُرسل ملاكي فيهيئ الطريق امامي وللوقت يأتي الى هيكلهِ السيّد الذي تلتمسونهُ وملاك العهد الذي ترتضون بهِ. ها انهُ آتٍ قال ربُّ الجنود». واتّفقوا كذلك في وصف بشارة يوحنّا الصابغ كما اثبتها اشعيا في نبوّتهِ (٤٠: ٣-٥) واستشهد يوحنّا بها مخصّصاً تلك الآية بنفسهِ (يو ١: ١٣): «صوتُ صارخٍ في البرّيّة أعِدّوا طريق الربّ واجعلوا سُبل إلهنا في الصحراء قويمةً. كلّ وادٍ يمتلئ وكلُّ جبلٍ وتلٍّ ينخفض والمعوّج يتقوّم ووعر الطريق يصير سهلاً ويتجلّى مجد الربّ ويعاينهُ كلّ ذي جسدٍ»

وكما وصف الانبياء مبادئ حياة المسيح وصفوا اعمالهُ وقت حياتهِ الرسوليّة فتنبأ

اشعيا عن اوّل بشارتهِ في الجليل وسواحل بحر الشام مقام سبطي زبولون ونفتالي وبقعة الاردنّ حيث تمكّنت عبادة الاصنام قائلاً (٩ : ١—٣) : «قد زال الاظلام عن التي كانت في الضيق . انّ الزمان الاول أزرى ارض زبولون وارض نفتالي وامّا الاخير فأكرمَ طريق البحر عبر الاردنّ جليل الامم . الشعب السالك في الظلمة ابصر نورًا عظيماً . الجالسون في بقعة الموت وظلالهِ اشرق عليهم نورٌ» . وكذلك بيّن ما امتاز بهِ السيد المسيح في تبشيرهِ للجمهور فقال عن لسانهِ (اش ٦١ : ١—٣ ولوقا ٤ : ١٨) : «انّ روح السيّد الربّ عليّ لأنّ الربّ مسحني لأبشّر المساكين وارسلني لاجبر المنكسري القلوب وأنادي بعتق المسبيّين وبتخلية المأسورين لأنادي بسَنَة الربّ المقبولة ويوم انتقام الهنا واعزّي جميع النائحين» . وقال ايضاً وفيهِ اشارة الى صوت الآب في معموديّة المسيح (اش ٤٢ : ١—٣ ومتى ٣ : ١٧ ولوقا ١٢ : ١٨) : «هوذا عبدي الذي اعضدهُ مختاري الذي سُرّت بهِ نفسي قد جعلتُ روحي عليهِ فهو يُبدي الحكم للامم لا يصيح ولا يجلب ولا يُسمِع صوتهُ في الشوارع قصبةً مرضوضةً لا يكسر وكتّانًا مدخّنًا لا يطفئ يُبدي الحكم بحسب الحقّ . . . وشريعتهِ تنتظر الامم» . وعدّد ايضاً اشعيا معجزاتهِ وبقولهِ استشهد المسيح في جوابهِ الى يوحنا (٣٥ : ٤—٦ ومتى ١١ : ٥) : «هوذا إلهكم . . هو يأتي ويخلّصنا حينئذٍ تتفتح عيون العميان وآذان الصمّ تتفتح ويطفر الاعرج كالأيل ويترنّم لسان الابكم»

وبشّر النبيّ زكريا (١١ : ٩) بدخولهِ الى اورشليم على اتانٍ فقال : «ابتهجي جدًّا يا بنت صهيون واهتفي يا بنت اورشليم هوذا ملكك يأتيك صدّيقاً مخلّصاً وديعاً راكباً على اتان وجحش ابن اتان» . وذكر داود سرّ قربانهِ وكهنوتهُ على رتبة ملكيصادق بتقدمة الخبز والخمر فقال (مز ٢١ : ٢٧—٣٠) : «سيأكل البائسون ويشبعون ويسبح الربّ ملتمسوهُ انّ قلوبكم تحيا الى الابد . . . كلّ سمان الارض اكلوا وسجدوا» . وقال (مز ١٠٩ : ٤) : «اقسم الربّ ولن يندم أنّ أنت كاهنٌ الى الابد على رتبة ملكيصادق» . وقد سبق قول ملاخي عن تقدمتهِ الطاهرة في كلّ اقطار الارض بدلاً من الذبائح الدمويّة في اورشليم

فاذا نقول الآن من آلام السيّد المسيح التي تنبّأها الانبياء . فدقّقوا في وصفها فذكر داود خيانة يهوذا الاسخريوطي (مز ٤٠ : ١٠) : «صاحب سلامي الذي

أكلتُ عليه واكل خبزي هو رفع عليَّ عقبهُ ». وعرَّف زكريا قيمة الأجرة التي اخذها كمن صفقته وبهِ ابتاعوا حقل الخزاف (١١: ١٢–١٣ ومتى ٢٦: ٤٧–٥٠) : « وزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة فقال لي الرب: أَلقِها الى الخزَّاف ثمناً كريماً ثمنوني بهِ » ولمَّح داود الى نزاعهِ في بستان الزيتون (مز ٤٤ : ٥–٦) قائلاً : « توجَّع قلبي في داخلي واهوال الموت وقعت عليَّ عراني الخوف والرعدة وغشيني الارتعاش ». واشار زكريا (١٣: ٧ ومتى ٢٦: ٣١) الى تفرُّق الرسل وهربهم وقت آلامهِ : « اضربُ الراعي فتتبدَّد الخراف

ثمَّ اتَّسع داود بوصف اتفاق الامم واليهود كبيلاطوس وهيرودس وامراء الشعب والكهنة في الحكم بالموت على المسيح (مز ٢: ١) : « لماذا ارتجَّت الامم وهذَّت الشعوب بالباطل قام ملوك الارض والعظماء ائتمروا معاً على الربّ وعلى مسيحهِ ». وخصَّص بالذكر شهود الزور الذين شهدوا عليهِ امام قيافا (مز ٢٤: ١١): « يقوم عليَّ شهود جورٍ ويسألونني عمَّا لا اعلم: يجازونني عن الخير شراً ». ثمَّ روى اشعيا ما قاساهُ من العذابات في الليلة التي قضاها في دار قيافا (اش ٥٠: ٦–٧ ومتى ٢٦: ٢٧) : « بذلتُ ظهري للضاربين وخدّي الناتفين ولم استر وجهي عن التعييرات والبَصق ». وافاض داود النبيّ في وصف صلبهِ وما جرى له على الصليب في المزمور الحادي والعشرين الذي ذكر السيّد المسيح اوَّله على الصليب (مرقس ٤٣: ٣٤)

« الهي الهي لماذا تركتني . . . انا دودة لا انسان عارٌ عند البشر ورذالةٌ في الشعب كل الذين يبصرونني يستهزئون بي يفترون الشفاه ويهزُّون الرؤوس. فوَّض الى الرب امرهُ فلينجهِ وينقذهُ فانَّهُ راضٍ عنهُ . . . فتحوا عليَّ افواههم اسداً مفترسةً زائرةً كالماء انسكبتُ وتفككت جميع عظامي . . . ثقبوا يديَّ ورجليَّ الي اعدُّ عظامي كلَّها وهم ينظرون ويتفرَّسون فيَّ يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون . . . »

ومثلهُ دقَّةً وتفصيلاً واضحاً قول اشعيا النبي حيث قال (٥٣: ١–١٢) :

« انَّهُ نبتَ كفرخٍ امامهُ وكجرثومةٍ من ارض قاحلة لا صورة لهُ ولا جمال فننظر اليهِ ولا منظر فنشتهيهُ. مزدرًى ومخذول من الناس رجل اوجاع ومتمرّس بالعاهات . . . لقد اخذ عاهاتنا وحمل اوجاعنا فحسبناهُ ذا برصٍ مضروباً من الله ومذلَّلاً جُرح لاجل معاصينا وسُحق لاجل آثامنا تأديبُ سلامنا عليهِ وبشدخهِ شُفينا. كلُّنا ضللنا كالغنم كلُّ واحدٍ مال الى طريقهِ فألقى الرب عليهِ اثم كلّنا. قُدّم وهو خاضع ولم يفتح فاهُ كشاةٍ سيق الى الذبح وكحمَلٍ صامتٍ امام الذين يجزُّونهُ ولم يفتح فاهُ. من الضيق والقضاء أُخذ ومن يصف مولدهُ. انهُ قد

انقطع من ارض الاحياء ولاجل معصية شعبي اصابتهُ الضربة أُتيح المنافقين بقبرهِ والاغنياء بموتهِ لانهُ لم يصنع جوراً ولم يوجد في فمهِ مكر.

فهذا كلهُ اشبه بتاريخ لواقعٍ سبق منهُ لامور تلحق وتحدث بعد النبيَّيْن بثمانمئة او الف سنة. يُضاف اليها آية زكريا في صلب المسيح (١٣ : ٦) : «ما هذه الجراح في وسط يَدَيك. هي التي جُرحتُها في بيت محبيَّ» وآيتهُ في طعنهِ بالحربة (١٢ : ١٠) : «وافيض على بيت داود وعلى سكَّان اورشليم روح النعمة والتضرُّعات فينظرون اليَّ انا الذي طعنوهُ». وآية داود في سقيهِ الخلَّ والمرَّ (مز ٦٨ : ٢٢) : «جعلوا في طعامي مرارةً وفي عطشي سقوني مرًّا»

لكنَّ الانبياء لم يصفوا فقط آلام المسيح بل أعلموا ايضاً بقيامتهِ ومجدهِ فقال داود عن قيامتهِ من القبر (مز ١٥ : ١٠) : «انَّ جسدي سيسكن على الرجاء لأنك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فساداً قد عرَّفتني سُبُل الحياة وستملأني فرحاً مع وجهك». وقال اشعيا معلناً بما ناله من المجد بموتهِ الاختياري عن البشر بعد العذابات التي مرَّ وصفها (٥٣ : ١٠—١٢) : «فانَّهُ اذ أجعلُ نفسهُ ذبيحةَ اثمٍ يرى ذريَّةً وتطول ايامهُ ومرضاة الربّ تنجح على يدهِ ... اجعل الكثيرين نصيباً لهُ والاعزَّاء غنيمة لأنَّهُ افاض للموت نفسهُ وأُحصي مع العُصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة». وصرَّح زكريا بنعمة مغفرتهِ للخطايا (١٣ : ١) : «في ذلك اليوم يكون ينبوعٌ مفتوحٌ لبيت داود ولسكَّان اورشليم للخطيئة والاثم». ووصف داود صعودهُ الى السماء مع نفوس الابرار الناجين بفضلهِ وجلوسهُ عن يمين ابيهِ فقال : (مز ٦٧ : ١٩) «صعدتَ الى العلى وسبيتَ السبيَ واعطيتَ عطايا للناس». وقال (مز ١٠٩ : ١ ومرقس ١٦ : ١٩) : «قال الربُّ لربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئاً لقدميك». واجاد يوئيل في وصف حلول الروح القدس على التلاميذ وتكلُّمهم بألسنة غريبة في عليَّة صهيون (٢ : ٨—٢٩ واعمال ٢ : ٢—١٨) فقال : «ويكون بعد هذه اني أُفيض روحي على كلّ بشرٍ فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبَّانكم رؤًى ... وعلى عبيدي وامائي أُفيض روحي في تلك الأيام واجعل عجائب في السماء وعلى الارض ... ويكون انَّ كلَّ من يدعو باسم الربّ يخلص لانها في جبل صهيون وفي اورشليم تكون النجاة كما قال الربّ

وتنبّأ اخيرًا في مجد كنيسة المسيح وانضمام الامم اليها اشعيا النبيّ حيث وصفها بصورة اورشليم الجديدة فقال (٦٠: ١–٤)

« قومي استنيري فانّ نورك قد وافى ومجد الربّ اشرق عليكِ. . . فتسير الامم في نورك . . . ارفعي طرفكِ الى ما حولكِ وانظري كلّهم قد اجتمعوا واتوا اليكِ. بنوكِ من بعيد يأتون وتُحمل بناتكِ في حضنكِ حينئذٍ تنظرين وتتهلّلين ويخفق قلبكِ ويرحب. . . مجد لبنان يأتي اليكِ. . . لزينة مقدسي واُمجّد موطئ قدميّ وبنو الذين عنّوكِ يُقدِمون خاضعين ويسجد لأخامص قدميكِ كلّ من ازدراكِ. . . عوضًا انكِ كنتِ مهجورة مكروهة فلم يكن احد يجتاز فيكِ سأجعلكِ فخر الدهور سرور جيلٍ فجيل . . . »

ولا يظنّنّ احد انّ هذه النبوّات لم تصف الّا مجدًا زمنيًّا ومفاخر بشريّة محضة فانّها تُعلن ايضًا بكمالات المسيح الالهيّة بل تكشف القناع عن لاهوته. قال اشعيا النبيّ (٩: ٦–٦) يصف ولادته: « انهُ قد وُلد لنا ولدٌ أُعطي لنا ابنٌ فصارت الرئاسة على كتفهِ ودُعي اسمهُ عجيبًا مشيرًا الهًا جبّارًا أبا الابد رئيس السلام لنموّ الرئاسة وللسلام لا انقضاء له على عرش داود ومملكتهِ ليقرّها ويوطّدها بالانصاف والعدل من الآن الى الابد » . فانّ اسماء كهذه دُعي بها مولود بيت لحم وابن داود لا تحقّ لغير الله اذ هو كفرٌ ان يدعى بشر « الهًا جبّارًا » او « ابا الابد » — وكذلك دعاهُ الكتاب (مز ١٠٩: ١) ربًّا (אדני) وهو اسم مختصّ بالربّ الاله. ودعاهُ اشعيا (١٢: ٣ و٤٩: ٨) « يسوع » او « يشوع » اي المخلّص وهو اسم المسيح الخاصّ دُعي بهِ لانّهُ وحدهُ من حيث هو الله امكنهُ ان يخلّص البشر من خطاياهم (متى ١: ٢١) . ودعاهُ سفر الحكمة « ابن الله » ليس بالمجاز بل بالحقيقة كما يظهر من قرينة كلامهِ عن الذين قاموا عليهِ وطلبوا موتهُ لكونهِ جعل نفسهُ ابن الله الحقّ قال (٢: ١٨–٢١) : « لنكمن للصدّيق فانّهُ ثقيل علينا يقاوم اعمالنا ويقرّعنا على مخالفتنا للناموس ويفضح ذنوب سيرتنا يزعم انّ عندهُ علم الله ويسمّي نفسهُ ابن الله . . . ويتباهى بانّ الله ابوهُ فلننظر هل اقوالهُ حقّ ولنختبر كيف تكون عاقبتهُ فانّهُ ان كان الصدّيق ابنَ الله فهو ينصرهُ وينقذهُ من ايدي مقاوميهِ . . . هذا ما ارتأوا فضلّوا » . — بل دُعي بالاسم العظيم اي اسم « الاله » فسمّاهُ ارميا (٢٣: ٦ و٣٣: ١٦) : « الربّ برّنا » وفي العبرانيّة « يهوه » (יהוה צדקנו) — ومثلهُ اسم المسيح في اشعيا (٧: ١٤) حيث قال انهُ يُدعى « عمانوئيل » (עמנואל)

اي الله معنا. فكفى بهذه الشواهد ادلة على انّ النبوّات خصّت المسيح بالألوهية بلا مراء.

ولم ينظر الانبياء والآباء الاولون الى المسيح فقط بعين الوحي السابق والرجاء الوطيد وانّما كانوا ايضاً رموزاً عجيبةً اليه والى اسرار حياتهِ ولا سيما صلبهِ وموتهِ. فانّ الله لم يشأ ان يبهر العالم بحلول كلمتهِ على الارض دون ان يعدّ قلوب البشر الى استقبالهِ. وان كانت الطبيعة لا تصنع شيئاً على بغتة بل تأتي باعمالها بالتدريج فكم بالحري كان يليق بهِ تعالى ان يرمز الى ابنهِ الحبيب ببعض اوليائهِ ليمثّلوا سلفاً شيئاً من اسرار حياتهِ وصفاتهِ الالهيّة. وترى السيّد المسيح نفسهُ ثمّ رسلهُ من بعدهِ يؤكّدون لنا انّ اولئك الرجال كانوا يمثّلون ابن البشر ببعض كمالاتهِ

وعليهِ فقد اعتبروا (آدم) كمثال المسيح (١ كور ١٥: ٢٢, ٤٥) من حيث هو رأس الجنس البشريّ الطبيعيّ. ففضلهُ المسيح اذ اضحى رأس جنسنا المفديّ بدمهِ وبكر الخلائق كلّها (كولسي ١: ١٥)

وقد مثّل (هابيل) في شخصهِ المسيح لمّا قدّم تلك التقدمة التي تنسّمها الربّ برائحة الرضى (تك ٤: ٣-٥) فقدّم المسيح تقدمةً افضل منها ونطق دمهُ الزكيّ لدى الله بابلغ من دم هابيل (عبر ١٢: ٢٤)

أُعطي (ابراهيم) مواعيد البركة لنسلهِ فصار ابا لسائر المؤمنين (تك ٢٢: ١٨) فجاء المسيح وافياً بتلك الوعود فحلّت بركة ابراهيم بواسطتهِ على جميع الامم (غلاطية ٣: ١٣-١٤)

رمز (ملكيصادق) الى تقدمة ذبيحة العهد الجديد غير الدمويّة بالخبز والخمر (تك ١٤: ١٨ ومز ١٠٩: ٤ وعبر ٥: ١٠)

كان (اسحاق) مثال المسيح في حملهِ حطب محرقتهِ لمّا طلب الربّ من ابراهيم ان يصعد ابنهُ محرقةً على جبل موريا (تك ٢٢: ١-١٥) ففضلهُ المسيح عندما حمل خشبة صليبهِ وانجز ذبيحتهُ (يعقوب ٢: ٢١)

(يوسف البارّ) في حياتهِ كلّها رمزٌ الى السيّد المسيح اذ باعهُ اخوتهُ وصار عبداً في مصر ثمّ جعلهُ الله ثنياناً للفرعون ومخلّصاً لأمّتهِ من المجاعة. فالمسيح

لسلمهُ أمتهُ للموت فكان موتهُ سبباً لمجدهِ وجلوسهِ من عن يمين الله وخلاص الامم من يدهِ

(موسى) صورة المسيح من حيث كان قائداً لشعب الله الى ارض الميعاد فضلاً عن كونهِ ألنبي هو في تثنية الاشتراع (١٨: ١٥) الى العلاقة بينهُ وبين المسيح . ففضلهُ المسيح اذ قاد الشعوب كلها الى السماء بعد ان فتحها بدمهِ الكريم

كهنوت (هارون) كبير احبار العهد القديم (خروج ٣٠: ٣٠) يشير الى كهنوت اعظم وافضل منحهُ الله لابنهِ الالهي وهو قد مسحهُ كاهناً ابدياً ووسيطاً بين الله والناس (عبر ٥: ٤ و٨: ١–١٦)

من يجهل انَّ (أيوب) باوجاعهِ كان رمزاً الى المسيح . وانَّ (داود) مثلهُ بعظمتهِ وانتصاراتهِ على الاعداء فدعاهُ بالروح ربهُ (مز ١٠٩: ١) مع كونهِ ابنهُ بالنسب . وانَّ (سليمان) ملك السلام كان صورة ذاك الذي القى سلاماً على الارض منذ مولدهِ فصرخت الملائكة: المجد لله في العلى وعلى الارض السلام

(ارميا) استحقَّ ان يرمز الى المسيح بدعوتهِ قومهُ الى الله وبتفانيهِ في سبيل شعبهِ ولذلك لمَّا ظهر المسيح ظنَّ اليهود انَّ ارميا عاد الى الارض (متى ١٦: ١٤)

وقد أكد السيد المسيح بنفسهِ ان (يونان النبي) كان مثالهُ اذ ابتلعتهُ الحوت فبقي ثلاثة ايام وثلاث ليالي في بطنها ثمَّ خرج حياً كما يخرج هو من قبرهِ حياً بعد ثلاثة ايام (متى ١٢: ٣٩ و١٦: ٤ ولوقا ١١: ٢٩)

وقد وجد الآباء في غير هؤلاء رموزاً الى المسيح كيعقوب ويوشع بن نون وبعض القضاة وصموئيل النبي وزربابل وغيرهم . وفي كلّ ذلك دليل على انَّ الله مهَّد الطريق لابنهِ باختيارهِ بين ابناء شعبهِ رجالاً من الاماثل الفضلاء وسموا خاصةً من خواصهِ ولمحةً من ملامحهِ لانَّ امورهم كما قال الرسول (١ كور ١٠: ١١) عرضت لهم رموزاً لموعظة البشر

وكما اجتبى الله اناساً ليمثلوا ابنهُ قبل مجيئهِ كذلك اختار لشعبهِ رموزاً اخرى غير ناطقة تمثلهُ . فكان (الحمل الفصحيّ) المضحّى سنوياً في فصح اليهود رمزاً الى حمل الله الحامل خطايا العالم والمضحّى عن آثامهم (يو ١: ٢٩ و١ كور ٥: ٧) . ورمز اليهِ

(تابوتُ العهد) الذي فيه كان يقيم مجدُ الله بين البشر . فجاء المسيح وصار عمانوئيل اي الله معنا . وكان رمزهُ (التيسُ المخلّى وتيسُ التكفير) المحكيّ عنهما في سفر الاحبار واشار اليهما الرسول (عبر ١٣ : ١٢) . ومثلهُ (عمود الغمام) الذي كان يتقدّم بني اسرائيل في التيه فاعتبرهُ مار بولس رمزًا الى معموديّة المسيح (١ كور ١٠ : ١—٤) . وهناك ايضاً اثبت انّ المسيح هو (الصخرة) التي ضربها موسى فانبع منها الماء فشرب بنو اسرائيل في البرّيّة ورووا . فالمسيح يروي النفوس بتعاليمهِ كما انهُ يغذيها بجسدهِ الحيّ المرموز اليهِ (بالمنّ) الذي اكلهُ بنو اسرائيل فماتوا اما المنّ الذي يعطيهِ هو فمن اكل منهُ لن يموت (يو ٦ : ٣١—٥٢)

ومن رموز العهد العتيق الى السيّد المسيح سُلّم يعقوب (تك ٢٨ : ١٢) التي رآها ممتدّةً من السماء الى الارض وملائكة الله صاعدةً عليها ونازلةً منها . فابن الله هو الوسيط بين السماء والارض وقال لتلاميذهِ « انكم سترون السماء مفتوحةً وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن البشر » . ومنها (خباء العهد) الذي كان يدخلهُ كبير الاحبار مرّةً في العام تكفيرًا عن خطيئتهِ وخطيئة الشعب اما المسيح فدخل الى خباء لم تصنعهُ ايدي البشر اي السماء « ليترآى امام وجه الله لاجلنا » (عبر ٩ : ٢٤) . ومنها (الحيّة النحاسيّة) التي اقامها موسى في البرّيّة لشفاء الملدوغين بالحيّات (عدد ٢١ : ٢٦) فكان المسيح مصلوباً هو الشافي لكل ادواء البشريّة فصرّح بانّ تلك الحيّة كانت مثالهُ في صلبه (يو ٣ : ١٤) ومنها (الذبائح في العهد القديم) التي رمزت الى ذبيحة المسيح الكاملة فانّ هذه قد تقدّمت مرّةً واحدة على جبل الجلجلة فكفّرت عن ذنوب البشر اما تلك فكانت تتكرّر لنقصها . ورموز اخرى غير هذه كفلك نوح وعصاة موسى وجزّة جدعون وغمامة ايليّا . وفي كلّها اشارات لطيفة الى السيّد المسيح ومعجزاتهِ

فمن لا يأخذهُ العجب بعد هذا من مقام المسيح ومنزلتهِ في العالم فايّ انسان بل ايّ ملك بل ايّ نبيّ عاش في العالم فملك عقول العالمين واستولى على قلوبهم الوفاً من السنين قبل وجودهِ بينهم فلولا انهُ الله لاُغلق على البشر ادراك هذا السرّ العجيب . فكلّ انسان تبتدئ حياتهُ يوم ولادتهِ وحياة المسيح ابتدأت منذ وُجد اوّل انسان على الارض . وقد عرف السيّد المسيح ذلك احسن معرفةٍ اذ نراهُ في حياتهِ لا يفعل

فملًا ألا ليتمّ ما سبق واوحى بهِ كاله الى انبيائهِ وكثيرًا ما نبّه رسله الى اقوال الانبيا. (راجع لوقا ٢٢: ٣٧ ومتى ٢٢: ٢٩) واذ اراد بطرس ان يدافع عنهُ في بستان الزيتون زجره قائلًا (متى ٢٦: ٥٤): «كيف تتمّ الكتب فانّ هذا ما ينبغي ان يكون» واذ كان على الصليب (يو ١٩: ٢٨—٣٠) «رأى انّ كلّ شيء قد تمّ فلكي يتمّ الكتاب قال: انا عطشان. . فلمّا اخذ يسوع الخلّ قال: قد تمّ». وبعد قيامتهِ وبّخ تلميذي عمواص (لو ٢٤: ١٠) لقلّة ايمانهما «بكل ما نطقت بهِ الانبيا.» لانهُ «كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام ثمّ يدخل الى مجدهِ. ثمّ اخذ يفسّر لهما من موسى ومن جميع الانبيا. ما يختصّ بهِ في الاسفار كلها». وكذلك فعل مع بقيّة التلاميذ (٢٤: ٤٤) حيث قال لهم: «هذا هو كلامي الذي كلمتكم بهِ اذ كنتُ معكم انهُ ينبغي ان يتمّ كل ما كُتب عني في ناموس موسى وفي الانبيا. والمزامير حينئذٍ فتح اذهانهم ليفهموا الكتب»

هذه شهادة النبوّات فليجسر ايّ انسان كان من اي دين كان ان ينكر قوّتها الالهيّة او بالحري فلتجثُ كلّ ركبة في السماء والارض لذاك الذي هو «الألف والياء. البداءة والنهاية» يسوع المسيح «الشاهد الامين وبكر الاموات ورئيس ملوك الارض الذي احبّنا وغسلنا بدمهِ من خطايانا» (رؤيا ١: ٥—٨) (لهُ بقيّة)

شهيد سر الاعتراف

روى البشير قبل شهرين خبرًا مؤثرًا عن كاهن كاثوليكيّ مات في روسية شهيد سر الاعتراف. فنظم حضرة الخوري الياس الحائك هذه الواقعة بالشعر وارسلها الى مجلتنا فها نحن ننشرها شاكرين لحضرته

قضى يختقُ الكتمانُ في صدرهِ السرّا ... بريءٌ جنى وغدٌ وحمّلهُ الوزرا
وحيّت الدنيا جسامةُ ذنبهِ ... وما هو بالجاني ولا عرفَ النكرا
تسرّعت الحكامُ في شجبِ كاهنٍ ... فما استأنفَ الدعوى ولا ميّزَ الامرا
وكان أطيعُ الغيرِ علّةَ شجبهِ ... فأنحهُ رعباً واسكتهُ ذعرا
فلا هوَ سفّاحٌ ولا الحالُ ناطقٌ ... يُبيّن بعد القتلِ الطهارةُ حرا

ولا شهدَ الجرمَ الفظيعَ عدثٌ ... يخبّر بين الناس مَن فعلَ الشرا
تحمّلَ جورَ الحكمِ حيرانَ مطرقاً ... ولم يقُل القاضي لعلَّ له عذرا
وقالَ: قصاصُ الخلقِ اهونُ وقعهُ ... على المرء من سخط المهيمن في الاخرى.
روت صحفُ الأخبار قصة كاهنٍ ... وسارت بها الركبان تستوقف الفكرا
وهاكَ تفاصيلَ الرواية صرّحَ م ... البشيرُ بها نثرًا فاوردتُها شعرا
تُطلع في التاريخ اجملَ صفحةٍ ... ويطفح وجهُ الدين من ذكرها بِشرا
وتصفعَ خدَّ الكفرِ ان قام ناقداً ... وتكسر سهمَ الخصمِ في نحرهِ كسرا
هنالك بارض الروس أوقف كاهنٌ ... بتهمة قتلٍ ذاق من جورها المرّا
وكانَ قتيلٌ من يدٍ بربريةٍ ... رماهُ رصاصُ الخصمِ فاخترقَ الصدرا
فاسرعَ استاذٌ هنالك ناساً ... الى الكاهنِ البَرّ الجريرةَ والكثرا
وجاء الى مستنطقٍ قائلا له: ... هلمّ الى التفتيشِ واكتشفِ الغدرا
فثَمَّ هذا في الكنيسة دائرًا ... وجالَ سريعاً في بنايتها طُرّا
وفي غرفةِ الخوري رأى بندقيةً ... لإثباتِ هذا الجرم باقيةً حرى
فقالَ: رأينا الشاةَ والذئبُ قربها ... مضرجةً فالذئبُ باقرها بقرا
كفى بلسانِ الحال اصدقَ شاهدٍ ... فلا تتهموا زيدًا ولا تظلموا عمرا.
نما خبر الخوري الى الاسقف الذي ... رماهُ بسهمِ الجرمِ عن عرشهِ جهرا
تجمّعتِ النشاتُ تصخبُ فوقهُ ... من الشعب وانهالت على رأسه تترى
وحاكمهُ القانونُ والناسُ واحدٌ ... بإبعادهِ راضٍ وتعذيبهِ مُغرى
فكان جزاء القتل شغلَ مشقةٍ ... وخيبةَ آمالٍ بها يقطعُ العمرا.
حرامٌ قضاةَ الارضِ رفقاً بصامتٍ ... براءتهُ في عرضِ جبهتهِ تُقرا
براءة ذاكَ الذئب من دم يوسفٍ ... يقول لكم: رفقاً وربُّكمُ ادرى.
مضى زمنٌ والناس تلهجُ بالذي ... جرى وحديثُ اللينِ بينهمُ يُشرى
الى ان تناسى حادثَ الامس كلُّهم ... ومدّت يدُ الأيام من فوقهِ سترا
وللكاهن السكين في الصدر انهُ ... يصعّدها سهماً ويُوجعها جمرا
تنوءُ بهِ الاقيادُ والحكم جائرٌ ... ويشتاقُ أن لو كانَ في نفيهِ حرّا
له حارسٌ صُلبُ الفؤاد ملازمٌ ... ليساقهُ عنفاً ويقتادهُ قسرا

ويُرجمهُ والسوطُ يُلهبُ ظهرَهُ ... الى عهدِ اسرائيلَ اذ كان في مصرا
رأى كلَّ اثقال الحياة خفيفةً ... ولا تُبهظُ الاثقالُ مَن حملَ الصبرا
فكم غافلَ الحرَّاس والليلُ سائدٌ ... وقام الى تسبيحهِ يسبقُ الفجرا
يردّدُ شكرَ الله والناس حولهُ ... نيامٌ وطَرْفُ الله يقظانُ لا يَكرى
قضى تحتَ هذا النيرِ عشرينَ حجّةً ... ولو شاء ربُّ العرش كانَ قضى دهرا.
تصرَّمتِ الأيام والحقُّ خلفها ... طواهُ اثيمٌ لا يودُّ لهُ نشرا
فاوقفتِ الآجالُ تيارَ شرّهِ ... وهبَّ ملاكُ الموت يعصرهُ عصرا
وقام على الاستاذ صوتُ ضميرهِ ... فاوسعهُ شتماً وأسمعهُ زجرا
وأوحت اليهِ النفسُ أنك مذنبٌ ... يهولهُ الماضي وتُفزعهُ الذكرى
فباحَ بسرٍ بعد ما طال حجبهُ ... واحنى عليهِ الصدرُ اضلاعهُ العشرا
اقرَّ لدى الحكّامِ بالصدق انهُ ... هو القاتل المُعزي الى الكاهن المكرا
وقد صرعَ الزرّاعَ بالامسِ طامعاً ... باموالهِ واستنزف المالَ والتبرا
وحاولَ إلصاقَ الظنون بغيرهِ ... فعلّمهُ الخنّاسُ مطلبهُ الوعرا
وارجعَ تلك البندقيّةَ بعد ما ... اثمَّ بها فعلاً جريمتهُ الكبرى
فاودعها في دار كاهنهِ الذي ... روى تحت ختم الاعتراف لهُ السرَّا
ليلبثَ قدّام الحكومة صامتاً ... ويلتصقَ الذنبُ الفظيعُ بهِ قهرا
فأسكتتِ الخوري خطيئةُ غيرهِ ... كأنَّ لها في كُنْف مهجتهِ وترا
وقابلَ ضيقَ النفي والأسر صابراً ... وقد كان بالتعذيبِ أستاذُنا احرى
وضنَّ بسرٍ حرَّمَ الدينُ كشفهُ ... ولو بادَ خلقُ الله عن ساحةِ الغبرا
وباتَ شهيدَ الواجبات ومثلهُ ... جديرٌ على تلك الشهامة ان يُطرى..
افاقَ ولاةُ الامرِ انَّ اسيرهم ... بريءٌ ويا ليتَ البريءَ مع الاسرى
فمن قبلِ ذاك اليوم جادَ بنفسهِ ... وخطَّ لهُ الظلّامُ في ارضهم قبرا
وراح من المنفى الى الوطن الذي ... ينالُ بهِ عن كلِّ نائبةٍ اجرا..
فاين دعاةُ الكفر مَن ثارَ شرُّهم ... على الدين يُروون التخرُّص والهُجرا
واينَ الألى يستلقونَ طياشةً ... باخبار ذاك الرهط فلينظروا الخبرا
ويا راوياً الكذب هل بعد ما جرى ... تحاول بالتمويه ان تحجب البدرا

حملتَ على الدين المقدَّس ناسباً ... لخدامهِ في وقت خدمتهم شرّا
فتكذيبك الحالُ الذي ادهش الورى ... وخطَّ لهُ التاريخُ في صدرهِ سطرا
ومثلك يا هذا يروحُ بشرّهِ ... ليُكتَبَ في ذيل الطاروس ولا يُقرا

ربَّة بني عَمُّون

بحث تاريخي اثري بقلم حضرة الخوري بولس سلمان

من تجوَّل في شرقيّ الاردن طاوياً تلك الديار الداثرة وسرَّح الانظار في هاتيك المدن البائدة وتأمل ما كانت عليهِ من المجد والثروة في الاجيال الدابرة وكيف انقلبت من رَفيع عزّها وانقرضت بعد ان تعاقبت عليها الدول الفاتحة تذكر النبوات الرهيبة التي قضت عليها بالخراب والبوار دهراً طويلاً من قبل ان ينزل بها شيءٌ من طوارق الايام ونوازل الحدثان واذا وقف على تلك الاطلال البعثرة ملكتهُ رهبةُ الاثار فسبحان الباقي العظيم من لا يتغيَّر بتقلُّب الادهار فيمرّ في خاده قول الشاعر العربي:

الا على الكلِّ امر لا مردَّ له ... حتى قضوا فكأنَّ القوم ما كانوا

على ان ما يطرب له قلب الزائر في رحلاته العلمية بين تلك الامصار انه يعثر على اسماء المدن القديمة بلفظها وحروفها كما نطق بها القدماء انفسهم وسطّرها مؤلفو الكتاب وغيرهم من المؤرخين الوثنيين وقد يختبر بنفسه قول الاوروبيين في الشرق بانه بطيءُ الحركة في مراقي النجاح لا يميل الى التغيير والاقتراح. هناك يراقب اخلاق الاهلين وعوائدهم وما اتخذوه في معيشتهم من مأكول ومشروب وآلات وملبوس وغيره كأن لم يحدث في عالمهم تقدُّم وفلاح. فهي هي دون ان يطرأ عليها زيادة ونقصان منذ اربعين جيلاً فينتقل الى دهر لم يكن ليعهد تمدُّنهُ ولا دارت في خلدهِ احوالهُ وشؤونهُ الى عصر الآباء والاسرائليين في طور نشأتهم فيدرك اذ ذاك ان ما دوَّنهُ كتاب الله من حياة العبرانيين لم يكن من مستنبطات الاذهان ولا من مخترعات الازمان كما يتوهَّم ارباب الضلال

ومن اقدم تلك المواطن عهداً واوفرها اثراً رَبّة بني عمون التي حلت علاً رفيعاً في الاجيال الماضية ودلم عزّها وعدها حيناً طويلاً تُنازع غيرها من المدن الشرقيّة الكبرى وهي اليوم تُلفت أبصار السيّاح بما بقي فيها من كنوز الدهر الغابر ولذلك احببنا ان ننشر من انقاضها الحاضرة ما وعاه لنا الزمن من تلك المعالم البائدة ونبشها من لحد النسيان قبل ان تُهدم ابنيتها القديمة وتصبح ردوماً واطلالاً. ولا يُنكر ما وراء تلك المقالات الكتابية الاثرية من جليل الفوائد ممّا تتجلى بها مشكلات الكتاب فضلاً عمّا يستعين به المطالع على ادراك ما تعسّر عليه من معضلات الآيات. ولقد قسمنا مقالتنا هذه الى قسمين: فالقسم الاول يبحث عن تاريخ الربة وقبل ذلك اتينا بشيء عن اسمائها وذكرنا موقعها الجغرافي ودورها في القسم الثاني وصف عمان وآثارها الحاضرة ممّا ترتاح اليه النفس وتلذّ له المطالعة

١ مدينة عمان واسماؤها

اول اسم عُرفت به عمان الرَّبة (רבה) ومعناها جليٌ لمن نال سهماً من اللغات الساميّة كالسريانية والعبرانيّة. والرَّبة هي العاصمة ودار الملك وهي مشتقّة من (רב) مصدر يدل على الكثرة لان العاصمة تجمع عدداً كبيراً من كبراء وشرفاء ولهم يستجدون دارَ السلطان لما يجدون هنالك من ضروب الزين وانواع الملاهي والمسرّات فضلاً عن راحة البال لا سيما في بلاد اصبحت من عهد قديم دار حرب واضطراب. وكانت الشعوب السالفة في عبر الاردنّ تسمي قصبة البلاد باسم الرَّبة وكانوا يضيفون اليها لقب الشعب ليكون بينها وبين غيرها تمييز مخصوص فلذلك دعوا قصبة بلاد موآب بربّة موآب (רבת מואב) ودعوا عاصمة بلاد العمونيين بربّة بني عمون (רבת בני עמון) وقد ذكرها على هذا المثال كتاب الله الكريم دفعات شتّى (١ وانما دعاها الانبياء والشعراء بمدينة المياه (עיר המים). واذا سافر المرء اليها

١) وهاك الآيات التي ورد فيها ذكرها . اولاً سمّاها الكتاب ربّة بني عمون في تثنية الاشتراع ف ٣ ع ١١ — سفر الملوك الثاني ف ١١ ع ٢٦ و ف ١٧ ع ٢٧ — ارميا ٤٩ : ٢ حزقيال ٢٥ : ٣ . ثانياً جاء ذكرها وحدها فسماها الرَّبة في يشوع ١٣ : ٢٥ — الملوك الثاني ف ١٢ ع ٢٧ و ٢٩ — الايام الاول ٢٠ : ١ — ارميا ٤٩ : ٣ — حزقيال ٢٥ : ٥ — عاموس ١ : ١٤)

طوالًا في تلك البوادي والقفار بين وقدات الحرّ وهجاته وانتهى الى تلك الديار شعر بانه في جنّات فسيحة ترويها المياه الغزيرة فيجلس تحت افنان خمائلها الضافية الظلال يستقي من عذب مواردها. هناك الآبار الكثيرة القديمة والحديثة فما يكاد يحفر في تلك الارض حفرةً صغيرة الّا وتتدفق منها المياه المتفجّرة ولذلك ترى الاعراب واردين اليها بمواشيهم واذا سألهم السافر عن اسم عمّان اجابوا بكلام الاستعارة انها مدينة المياه على انّ هذا الاسم أُطلق في الايام القديمة على المدينة السفلى كما سنبيّنه في موضعه ولقد ذكرها الانبياء ايضا باسم معبوداتها فدعوها بمدينة ملكوم او ملكام (עיר מלכם או מלכום) . وقال استفانوس البيزنطي انها كانت تدعى باسم الإلهة عشتروت لوجود هيكل فيها لتلك المعبودة. وقد سماها اشوربانيبال حين افتتحها ببيت عمون (בית עמון) وفي اللغة الاشورية يدلّ البيت على الحصن الحصين والهيكل المعظم. وبعد ان درجت الايام دعاها المؤرخون من يونان ورومان فيلاذلفيا (Φιλαδέλφεια) نسبةً الى بَطْلِمُوس فيلاذلفوس (Πτολεμαῖος Φιλάδελφος) (٢٨٥–٢٤٧ ق.م) وهو الذي رمَّم فيها هيكل الزُهرة وعبادة الشمس. وكذلك دعتها المسكوكات المكتشفة ما بين اسوارها. وعلى هذا المثال ذكرها اوسابيوس في كتابه معجم الاسماء (Ὀνομαστικόν). ولما نزل فيها الاعاجم وبنوا فيها القصر الكبير لم يغيّروا رسمها بل دعوها عمّان واتى العرب من بعدهم وابقوا ذلك الاسم دون ان يُنزلوا به تحريفاً ولذلك يقول المقدسي في الجيل العاشر: وعمّان هي حاضرة البلقاء. ولبث هذا الاسم الى يومنا هذا مرسوماً في حوافظ الناس يوردونه على هذا المنطق (١

٢ موقعها الجغرافي

مدينة عمّان واقعة في الجنوب المائل الى الشرق من ارض فلسطين ما بين

---

١) وممّا يحسن ذكرهُ هنا ان الربّة اسم مدينة من مدن اليهودية ذُكرت مع قرية يعاريم في سفر يشوع ف ١٥ : ١٠ ولم تُكتشف آثارها الى هذا الحين وهي تتميَّز عن ربّة بني عمون. والربّة في زمننا الحاضر مدينة كبيرة في اواسط افريقية على نهر النيجر كانت تجارة الارقاء رائجة فيها ويكثر فيها اليوم بيع العاج

الدرجة الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين عرضاً والدرجة الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين طولاً. واذا سافر المرء عند طلوع الشمس راكباً قطار الحجاز من الشام ادّى به السير عند المساء الى محطة عمان وهي تبعد عن دمشق ٢٢٢ كيلومترًا وآثار عمان تبعد عن موقف القطار اربعين دقيقة واذا امتطى جوادًا من السلط طالباً عمان وصل اليها بخمس ساعات. وكم من اسير من امراء العرب طوى ذلك المدى طيرًا ينهب الارض لسرعة جواده. فاذا انتهى الى تلك الارض رأى امامهُ سهلاً خصيباً يريح الانظار تتدفق في جوانبه الجداول فتسقي تلك الحدائق الملتفة الاشجار فيقف ليعاين تلك المناظر البهجة وما زانتهُ يد الانسان من المشاهد البديعة. هناك نهر عمان يجري بين جنّات واسعة ثم يمتدّ فيصير راساً لنهر الزرقاء المعروف في الكتاب المقدس باليبّوق (p=٩). والمدينة السفلى يقسمها النهر الى قسمين وعلى جانبيهِ قد ارتفعت ابنية الشركس على آثار مدينة المياه ومدينة الملك. وعمّان تعلو عن سطح البحر نحو ٧٣٥ مترًا

٣ تاريخ مدينة عمان

ان العمّونيين هم من نسل لوط كما سطّره الكتاب فولدت له ابنتهُ الصغرى ابناً سمّته بنعمي وهو ابو بني عمون. ومن رام تدوين تاريخهم من اول نشأتهم اتّضح له ان تقدُّمهم في مراقي العمران اشبه بتمدن بني اسرائيل فكانت اول خطواتهم في معارج الحضارة تضارع حياة الاباء الذين عاشوا بين مواشيهم واغنامهم يسرّحون بها في تلك الجبال والهضاب منتجعين ربوع الخصب والنماء واردين الى مجاري المياه. ولربما كانوا في اول امرهم قاطنين في المغاور المجاورة للربّة لانها لم تزل مأوى الرعيان وعابري الطريق الى يومنا هذا فكانوا يقضون لياليهم فيها آمنين من وطأة الاعداء والغزاة. وبعد ان درجت الايام ورأوا من الضرورة استخدام الخيم اخذوا ينسجون بيوت الشعر طلباً لحاجات غنمهم. على انهم اقاموا لهم بيوتاً صغيرة بنوها بالآجرّ والطين كما تشهد عليه الآثار الخارجة عن البلد. ولم يسكنوها الا الزمن القليل من السنة بل كانوا في رحيل مستديم يقطعون الارض الى مواقع الكلاء

ولبث دينهم التوحيد دهرًا لا يُعرف له حدّ في هاتيك الاجيال يقيمون

النبائح للعلي · بيد أنهم بعد تعاقب الازمان اختلطوا بمن حولهم من الجبابرة الوثنيين ورأوا من عوامل الطبيعة ما أثّر بهم لا بل خلبوا بجهلها كما قال الكتاب وشاهدوا من قوة المخارقات وافعالها كالشمس والقمر ما اوجبهم رهبةً ووقاراً فنسوا الخالق حيناً بعد حين وألّهوا قوى الطبيعة الشيء بعد الشيء · فلذلك عبدوا الشمس والقمر والسيّارات فاقاموا لها الهياكل العظيمة والمعابد الفخيمة · ومن أشهر آلهتهم كاموش (١ وملكوم وهما معبوداهم العظيمان حتى دعاهم الانبياء بشعب كاموش وشعب ملكوم لعلّ ملكوم هو نفس مولوك (מלך) فقد قال عنه الكتاب انهم كانوا يقدّمون له تقادم اولادهم وبناتهم ويحرقونهم بين ايدي مولوك (העביר את בנו ואת בתו באש למלך)

وكان لملكوم كهنة وذبائح تقام في الهياكل او في الغابات تحت اشجار السنديان او على المشارف وسنذكر في منتهى الكلام ما عثرنا عليه في تلك الاصقاع من الآثار · وقد سجدوا للإلهة عشتروت فكانوا يصوّرونها على ضروب متنوّعة فطوراً كانوا يمثلونها على صورة عشتروت الفينيقيين واخرى على مثال عشتروت الفلسطينيين · وعبدوا البعليم وهي إلهة غريبة لم تنشأ في بلادهم بل حملوها من ارض كنعان لما كان بين العمونيين والكنعانيين من المواصلات العديدة فرسموها على انواع مختلفة فتارة كانت كالجماد وتارة كالحيوان واخرى كالانسان · والبعليم عندهم هو المبدأ العامل وعشتروت المبدأ القابل فمنهما تولّدت الآلهة على زعمهم

فهذا الطور من حياتهم مساء العلماء دهر الشيوخ فكانوا يختارون لانفسهم

---

١) ومما يؤيد قولنا ان وُجد في ديبان او ديبون القديمة في الجانب الشرقي من الاردن وهو قطعة من الرخام الاسود يحتوي على ثلاثين سطراً وهي اليوم في متحف اللوفر في باريس ويخبرنا الحجر الموآبي عن حروب الملك ميشع (Mêsa) وما جرى له مع عمري ملك اسرائيل · والملك نفسه هو الذي اقام ذاك الاثر وقد دُوِّن نحو سنة ٨٠٠ ق م على عهد عمري · قال فيها: «انا ميشع ابن كاموش جاد ملك موآب الديبوني · ان ابي قد ملك على موآب ثلاثين سنة وملكتُ بعد وفاته وأقمتُ هذا النصب اكراماً لكاموش تذكار خلاص لانهُ انقذني من جميع الظالمين واراني مرادي من اعدائي حتى من عمري ملك اسرائيل · وقد ضايقوا موآب اياماً كثيرة لان كاموش كان ساخطاً على ارضه وعلى عهدي قال كاموش: قم بنا سأروي شهوتي بهِ وسأسحق اسرائيل سحقاً ابدياً » · واسم كاموش قد أُدخل في استهلال الكتابة وذُكر اثنتي عشرة مرة في المدح والثناء فيعزو لكاموش كل ما يلحقهُ من الاضرار او ما ينالهُ من الافراح · وذكرت تلك الكتابة الاسم يهوه بالنطق العبراني (יהוה) قال: «وسلب اواني يهوه وقدمها لكاموش إلههِ »

رجالًا ممن عُرفوا بثاقب آرائهم وصحّة آدابهم ونزاهة سيرتهم وفطنتهم ودرايتهم يحلّون اليوم مشكلات الامور فكانوا الحاكمين في الدعاوي الداخلية والمصلحين للاحوال الخوارج لا بل كانوا في بعض الاحوال يقومون مقام الكهنة وارباب الدين وعلى الاجمال كانوا مسلّطين في الامور الدينية والسياسية والاجتماعية واذا دعتهم الايام كانوا يمتطون الخيل ويحشدون الجيوش لشنّ الغارات او ردّ الاعداء . ولو اردنا ان نضع حدًّا للمشابهة لرأينا الاعراب في ايامنا صورةً للعمونيين في هاتيك الايام

بيد انّ ذاك الطور لم يلبث أن تلاه دهر سمّوه دهر الملوك اقاموا به عليهم رجلًا واحدًا قلّدوه زمام السلطة . ومما يستلفت الاذهان انّ الأمم السالفة كانت تختار من ملوكها من كان قويّ الجسم جبّارًا يرعب الجيوش بسطوته ويرجح القوم بعلو قامته وضخامة اعضائه فاول ملك ملّكه العبرانيّون هو شاول وكان شاول من كتفه فما فوق اطول من كل الشعب . وكذلك فعل العمونيّون فاول ملك ساد عليهم هو عوج وعاش في الجيل السادس عشر قبل المسيح وكان من بقية الرفائيين (١ ومن غريب امره انه كان مالكًا على ارض باشان مستوليًا على سلخة وأذرعي . ولما امر الرب الاسرائليين بافتتاح تلك البلاد انكسرت جيوشه امام بني اسرائيل فلم يجد بدًّا من الهرب فانهزم تاركًا لهم مدنه وامواله وغنمه واعتصم بالربّة لما وجد فيها من الامن والسلام (٢ فضلًا عمّا فيها من الحصون المنيعة والقلاع الحريزة فحمل اليها سريره وكانت الربة شهيدة على ايام موسى بذاك السرير الغريب وطول السرير تسع اذرع وعرضه اربع اذرع بذراع الرجل (تث ٣ : ١١) فملكوه عليهم لما ألفوا فيه من صفات الملك وغدت الربة منذ ذاك الحين عاصمة بلاد العمونيين . فاعدّ لنفسه جيشًا واتّخذ حاشية وقوّادًا لدفع هجمات الاعداء . ودارت الحروب بين

---

١) والكتاب يسمّيهم زمزميين وهم الجبابرة المشهورون منذ القدم — وكان في ارض العمونيين قبل تروّلهم فيها قوم من الجبابرة يسمّونهم زمزميين فاهلكهم الربّ واقام مكانهم بني لوط (تثنية الاشتراع ٢ : ٢٠)

٢) وقال الرب لبني اسرائيل : واذا دانيت جهة بني عمون فلا تُعادهم ولا تُناجزهم (تثنية الاشتراع ٢ : ١٩)

يشوع والامم القاطنين في عبر الاردن فاذلهم وامتلك اراضيهم بيد ان الربة لبثت مستقلة بين ايدي العمونيين فوهبوا ليشوع نصف ارضهم اعطاها يشوع لبني جاد فكانوا يؤدون من ذاك العهد الجزية من مواشيهم لآل اسرائيل

وكان الله قد نهى الاسرائيليين عن مخالطة الامم واتخاذ بناتهم فلم يكترثوا لكلام الله ولا حفظوا عهده بل اخذوا حيناً بعد حين يتزوجون ويزوجون ويخالطون العمونيين فكانت نتيجة معصيتهم ان عبدوا البعليم والعشتروت وكاموش وملكوم — فقد يحسن بنا ذكر ما كان يجري هنالك من الحفلات الدينية والطقوس الغريبة فكانت العذارى يطفن حول الصنم يسحبن ثيابهن الضافية الاذيال بين اصوات الدفوف والمزامير والكنارات وبين الترانيم الخلاعية والاغاني المهيجة . وبقيت تلك العادة بين العرب كما اشار اليها امرؤ القيس حيث قال في معلّقته :

فعنَّ لنا سربٌ كأن نعاجهُ عذارى دوارٍ في ملاءٍ مذيَّلِ

فغضب الرب غضباً شديداً على بني اسرائيل لانهم عبدوا البعليم والعشتروت وآلهة بني عمون واسلمهم الى العمونيين ثماني عشرة سنة فظلموهم بما كانوا ينهبونه من الغنم بالغزوات المتواصلة وداسوهم تحت اقدامهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل طمحت بهم النفس الى افتتاح يهوذا وبنيامين وآل افرائيم فاستغاث اسرائيل بالرب في شدّته فاجابه الرب مستهزئاً : اذهبوا واستغيثوا بالآلهة التي اخترتموها فهي تنقذكم . على ان قلبه رقّ لهم وارسل لهم مخلّصاً يفتاح الجلعادي . فذهب يفتاح الى الربّة وخابر الملك بالصلح فلم يقبل بالصلح والسلام فمضى وحشد العساكر وتوّل بجيش عظيم فدحر بني عمون وردّهم الى ارضهم مغلوبين (قضاة ١١ : ٣٣)

ومضى جيل على تلك الحال والعمونيّون مذلّلون لا يميلون الى الحروب بيد انهم تقوّوا في تلك المدة ورأوا من ضعف بني اسرائيل ما شجّعهم ودفعهم على القتال فنزعت نفوسهم للغزوات (١ملوك ١١ : ١—١١) فنزلوا بخيلهم الى يابيش جلعاد فقال جميع اهل يابيش لناحاش ملك العمونيين وهو الملك الثاني الذي ذُكر له اسم في الكتاب : « اقطع لنا عهداً فنخدمك . فقال لهم ناحاش العموني : على هذا اقطع لكم عهداً اقلع كلّ عين يمين لكم واجعل ذلك عاراً على بني اسرائيل » . ومما عثر عليه

العلماء في ابحاثهم الاثرية ان الاقدمين كالمصريين والاشوريين والبابليين كانوا اذا ارادوا ان يذلّوا انساناً شوّهوا اعضاءه بما جعله كريهاً مستحقّراً فطوراً كانوا يقلعون عينه كما ورد في الكتاب واخرى كانوا يقطعون لسانه وتارة كانوا يحلقون لحيته وذلك عار عند الاقدمين اذ اللحية تُعدُّ عندهم زينة الرجل وصورة المهابة ومثال الكمال. فلما سمع شاول بما جرى اخذ ثورين فقطعهما وأنفذ الرسل الى جميع تخوم اسرائيل يقولون: كل من لا يخرج وراء شاول وصموئيل هكذا يُصنع ببقره. فاجتمع جيش عظيم وقاتل بني عمون فتشتّت من بقي منهم ولم يبقَ اثنان مجتمعين

وفي آخر عهد شاول لمّا نشأت بينه وبين داود المنازعات كان داود كثيرا ما يلجأ الى بلادهم ويحتمي في الربة عند الملك ناحاش. فتوثقت عرى المحبة والصداقة بينهما. فلما مات ناحاش عقبه ابنه حانون على عرشه (٢ ملوك ١٠: ١٦) فقال داود: اصنعُ رحمة الى حانون بن ناحاش كما صنع ابوه رحمة اليَّ فارسل عبيداً ليعزّوه عن ابيه فظنّهم جواسيس قدموا ليعرفوا قوته وارضه فاهانهم اهانةً عظيمة وارسلهم الى وطنهم فكانت نتيجة ما حدث ان اضطرمت نيران الحرب بينه وبين الملك. فاستنجد العمونيون ملك ارام دمشق فنزل ملك ارام بمركباته الحديدية وخيله وعسكره وانتهى الى سهل ميدبا اي مادبا الحديثة فدار القتال بينهم والتحم الفريقان فقُتل شوفاك قائدهم وانهزم الباقون وتشتّتوا. على ان داود كان يخشى دائماً وطأة الاعداء ورجوع الحرب ما دامت قلاع الربّة بين ايدي العمونيين ولذلك لما ادبر الشتاء وبدا الربيع بزهوره حيث كان الملوك يخرجون فيه للقتال ارسل داود يوآب لمحاربة الربّة (٢ مل ١٢: ٢٦) ولبث داود في اورشليم في قصره فمضى يوآب بجيش عظيم وحاصر المدينة السفلى الممتدة على شاطئ نهر عمان وكانت تدعى مدينة الملك. واخذها دون عناء لقلة منعتها. وتعسّرت عليه المدينة العليا لما فيها من الحصون الكثيرة فضلاً عن المؤن الوافرة التي تعينها على احتمال الحصار. فكان العمونيون يرمون جنود يوآب بالنشاب والصواعق وكانت السهام ترمي الجيوش لكثرتها. فعاد يوآب عن محاصرتها وبعث بكتاب لطيف يدعو الملك داود للمحاربة قائلاً: ها قد اخذتُ الربّة وحزتُ على مدينة المياه مدينة الملك (עיר המים עיר המלוכה) فاجمع بقية الشعب وانزل على المدينة وخذها انت لئلا آخذ المدينة

فيكون الفتح على اسمي. وكان ملك الربة قد اعدَّ المدَّات في قلاع الربة وحشد الجيوش المديدة وكان في تلك المدينة العليا بركة كبيرة يُنزل اليها بالدرجات الى عين المدينة السفلى وكان الاهلون يعرفون لها باباً نُحت في الصخر واذا انشبت الحرب دحرجوا الحجارة على بابها فلم يُعرف لها اثر. فجمع داود كل الشعب وسار الى الربة فحاربها واخذها بعد النصَب الطويل واخذ تاج ملكوم (١ الههم وكان وزنه قنطاراً من الذهب بالحجارة الكريمة فكان فوق رأس داود . واغتنم من المدينة غنائم وافرة جداً واخرج الشعب ووضعهم تحت المناشير ونوارج من حديد وطرح منهم في أتون الآجر فارتاعوا مذ ذاك الحين وخضعوا لملوك اسرائيل واصبحوا عبيداً لداود يؤدون له الجزية والاعشار من محاصيل بلادهم . على ان داود اختار منهم من وجدهم ابطالاً فيا بينهم ولذلك نعاين في عداد جيشه حالق العموني

وخلف ناحاشَ ابنه شوبي وكان موالاً لداود (٢ مل ١٧ : ٢٧) مدة ملكه ولما هرب داود من وجه ابشالوم ابنه اتى امامهُ من يعتني به ويقدّم له ما يحتاج اليه من الطعام. ولما دخل داود محنايم جاء شوبي بن ناحاش وقدَّم له فرشاً وطسوساً واوعية خزف وحنطة وشعيراً ودقيقاً وفريكاً وفولاً وعدساً وحمصاً مشوياً وعسلاً وسمناً وضأناً وجبن بقر فأكل هو والشعب الذي كان معه

وملك سليمان وتزوج ببنات العمونيين وبنى لهنَّ هيكلاً تجاه اورشليم قال الكتاب: وبنى سليمان مشرفاً لكاموش رجس موآب في الجبل الذي تجاه اورشليم ولمولك رجس بني عمون. ولم يُسمع عنهم بعد ذلك نبأٌ حتى ايام عزيا (٨١١—٧٦٠) حيث ادّوا الجزية له من غنائمهم. وتمردوا على ايام يوثام ملك اورشليم فقاتل ملكهم وتغلب عليهم (٢ الايام ٢٧ : ٥) فادّى له بنو عمون في تلك السنة مئة قنطار فضة وعشرة

١) جاء في الترجمة البروتستانية التي طُبعت في المطبعة الاميركانية: وأخذ تاج ملكهم. فقد ترجموا מלכם بملكهم ومما يظهر ان الكلمة العبرانية تدل على ملكوم اله العمونيين كما فسره الآباء اليسوعيون في ترجمتهم فضلاً عن ان الملك لا يستطيع ان يحمل تاجاً وزنه قنطاراً والآثار اتفقت تخبرنا على ان ملكوم كان ممثلاً على كرسي او عرش ومن فوق رأسه شيء يشبه القبة وعليها تاج كبير

الآف كرّ من الحنطة وعشرة الاف من الشعير وادّت له بنو عمون في السنة الثانية والثالثة مثلها

وكانت الربة زاهرةً عامرة على ايام الانبيا. تجمع عددًا عديدًا من الناس ما بين اسوارها وكانت عبادة ملكوم سائدةً فكان الانبيا. يأسفون على حالها ويتنبأون على خرابها المستقبل. قال ارميا النبي: «ها انها تأتي ايام يقول الربُّ اسمع فيها هتاف القتال في ربَّة بني عمون فتصير تلَّ ردمٍ وتُحرق توابعها بالنار... قال الرب اصرخنَ يا بنات الربَّة وتحزَّمنَ بالمسوح واندُبْنَ وطُفنَ عند الاسيجة فان ملكوم يذهب الى الجلاء. هو وكهنتهُ ورؤساؤه جميعاً ما بالكِ تفتخرين بالاودية لقد ذبل واديكِ ايتها البنت العاصية المتوكلة على كنوزها. هاءنذا اجلب عليكِ الرعب يقول السيد رب الجنود» (ارميا ٤٩: ١–٧). وقال حزقيال النبي (٢٥: ٢): «اجعل وجهك يا ابن البشر الى بني عمون وتنبأ عليهم هكذا قال السيد الرب: بما انكِ ايتها الربَّة قلتِ نعماً لمقدسي لانه دُنِّس ولارض اسرائيل لانها استوحشت ولآل يهوذا لانهم ذهبوا الى الجلاء، هاءنذا اجعلكِ لابناء المشرق ميراثاً فيقيمون حظائرهم فيكِ ويجعلون فيكِ مساكنهم ويأكلون ثمركِ ويشربون لبنكِ واجعل ربَّة مناخاً للابل وبني عمون مربضاً للغنم». وقال عاموس النبي: «سأضرم نارًا في سورِ ربَّة فتأكل قصورها مع صيحة في يوم القتال وعاصف في يوم الزوبعة ويذهب ملكوم الى الجلاء هو ورؤساؤه معاً قال الرب» (عاموس ١–١٤)

وقد تمت تلك النبوآت الرهيبة على ايام اشوربانيبال (٦٦٨–٦٢٦) فلما حاصر الربَّة اضرم نارًا في اسوارها وهدم قصورها وملكها وجلا اهلها الى بلاد الاشوريين وسار معهم الكهنة وخدَمة ملكوم وحملوا عبادتهم الى تلك الاراضي الغريبة. قال في سجلّاته: «واخذتُ بيت عمون في الحوران». وصار العمونيون الحين بعد الحين تحت سلطة الكلدانيين والفرس وقد اقام فيها الاعاجم قصرًا اسماهُ العلماء بالقصر الساساني وهو اليوم في المدينة العليا كما سنبينه. وعقبتهم زمناً طويلًا الدولة المصرية والسورية حتى ان بطليموس فيلاذلفوس دعاها فيلاذلفيا نسبةً الى اسمه وكانت الدول كلما افتتحتها بنت فيها المنازل الكبرى وشيدت اسوارها واقامت فيها العروبو والمعاقل. وروى بولسيوس المؤرخ ان انطيوكس الكبير (٢٢٠–١٨٥ق.م)

حاصر في قلعة الربة جيوش بطلماوس فيلوباتور ولم يتمكن من افتتاحها الّا بخيانة وذلك ان اسيرًا كي ينجو من العذاب انبأ الملك عن البركة الموجودة تحت القلعة فمنع انطيوكس المياه عن اهل القلعة فاستسلموا بعد ايام لامر الملك انطيوكس لما اصابهم من العطش الشديد

وفي سنة ٦٥ قبل المسيح ملكها ملوك العرب المدعوين بالنبطيين وبقيت في حوزتهم الى السنة ٣٠ ق م. ومما يؤيد كلامنا ما عثرنا عليه من الآثار النبطية لا سيما النقود القديمة باسم عبداس الاول والثاني ومليكوس الثاني الذي ملك تسع عشرة سنة اي من سنة ٤٧ الى ٢٨ قبل المسيح واما اريتاس الرابع اي الحارث الملقب فيلوباتور (١٩ ق.م-٤٠ ب.م) فقد امتدت سطوته على الربّة زمنًا طويلًا. ويفيدنا يوسيفوس المؤرخ اليهودي ان هيرودس الملك حاصر القلعة واخذها بالعطش. ومما يظهر ان بمبايوس فابيتوس هو الذي جعل فيلادلفيا تحت امارة الرومانيين

ودخل فيها الدين النصراني منذ الجيل الاول وقد ظنّ بعض المؤرخين ان المؤمنين الاوّلين هربوا من اورشليم لما حدث فيها من الاضطهادات والتجأوا الى عمان. وقد اصبحت تلك المدينة من اكبر المدن النصرانية وراء الاردن وغدت مع تقادم الازمان دار اسقفية وشُيدت فيها المدارس العالية ليتلقن فيها الاكليريكيون الدروس الدينية وبُنيت فيها الكنائس العديدة كما تشهد عليها آثارها الحاضرة. وقد ذكر المؤرخون الكنسيون انّ اساقفتها حضروا المجامع الاولى المسكونية كأفسس وخلكيدونية وفي نيّتنا ان نسطر مقالة اخرى في مدينة عمان النصرانية ونذكر اساقفتها وكنائسها ومدارسها وسننشرها ان شاء الله عن قريب

٤ آثار الربّة في عهدنا الحاضر

ان المدينة العليا من الربّة تحتوي على بديع الاطلال ورفيع الابنية ومن اشهر تلك الآثار القلعة العظيمة وهي راقدة على جبل مرتفع وفي اعلاه سهل واسع يشبه الزاوية فالفرع الاكبر من الزاوية طوله تسعمئة متر وعرضه ثمانون مترًا فيتجه من الشرق الى الغرب والفرع الثاني طوله ٤٠٠ متر وعرضه ٦٠ م ويتجه من الجنوب الى الشمال والوديان العميقة تحيط بها من كل الجهات وقد اصطنعوا من الناحية

الشمالية خندقاً واسعاً حتى اصبحت القلعة منيعة لا تقوى عليها ايدي الفاتحين · ويرتقي اعلى الجبل شيئاً فشيئاً من الشرق الى الجنوب الى ان يصير علوه مئة وثلاثة وثلاثين متراً وقد بُنيت الاسوار من كل انحائها بالحجارة الكبيرة على الطريقة اليونانية الرومانية وشُيّدت عليها البروج المرتفعة حتى غدا علوها اكثر من عشرة امتار كما في الزاوية الشمالية ومما يستوقف الابصار البرج الجنوبي وله باب جميل نُقشت فيه انواع الزهور

وفي مقرن الزاوية يوجد باب عظيم يحتوي على ثلاثة ابواب ولم يبقَ هناك الا اساس الاعمدة الاربعة الكبيرة الراقدة على وجه الارض · واذا صعد السائح بعض الخطوات نحو الشمال التقى امامه هيكلاً لم يترك لنا الدهر منه غير مقدمته وبعض الاعمدة المذكورة · وهذا الهيكل هو على الشكل الكورنثي ويتضح انّ بانيهُ هو القيصر مارقوس اوريليوس الفيلسوف (١٦١–١٨٠م) وقد وجدنا هنالك نقوداً من الملك المذكور عليها مرقوم: فيلادلفيا هرقل البقاعي (Philadelphie d'Hercule de Cœlé-Syrie) وقد عثرنا على اثر حجري هناك سُطّر فيه اسم مارقوس اوريليوس وكان الملك المذكور قد بنى ذاك الهيكل على اسم هرقل اي الشمس معبودة العمونيين

ومن تقدم نحو الشمال بين الاحجار والانقاض عاين القصر الساساني وله ست وعشرون متراً طولاً وخمس وعشرون عرضاً وفي متحفه فناء واسع قد هبطت قبّتهُ الجميلة وبينما نحن نتأمل في جدران تلك الحجرة وما رُقش عليها اذ خرجت حية رقطاء تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وقد يأوي الى تلك الاخربة عدد وافر من الحيات كما روى ساكنو عمّان · وفي مؤخر تلك الفسحة اربع حُجَر وفي زاوية كل منها برج عظيم · وقد يسحر الانظار ما رقش على جدارها من النبات والاثمار هناك عناقيد العنب تتساقط على الحائط ببديع نقشها هناك اوراق الدوالي وانواع الازهار تنبئ بجليّ البيان عن حذق ناقشها · وكأنّ صانعها اراد ان يمثل اثمار تلك الربوع وقد اشتهرت تلك الارض بوفرة عنبها الى ايامنا الحاضرة وهي تذكرنا بقصر المُشتّى (١ قال المقدسي في الجيل العاشر (ص ١٧٥): انّ فيها قبر اوريا قائد الملك

١) قصر المشتى بناء مربع طولهُ ١٤٦ متراً وعرضهُ ١١٦ لهُ ابراج اربعة في كل ناويةٍ.

داود الذي قُتل في محاصرة الرَّبة — ومن وراء القصر الساساني فناء كبير طوله مئة وثمانية امتار يمتدّ من الشرق الى الغرب وثلاثة وثمانون من الشمال الى الجنوب . واما الحائط الشمالي فكان مزيّناً بالكوى يضعون فيها التماثيل

ومما هو حري بالاعتبار ان ذلك الجبل يحتوي على بركة خفية مبنية في منحدر الجبال من جهة الشمال وكانت تجمع المياه لاهل القلعة ايام الحصار وينزل اليها الاهلون بدرجات كبيرة يستقون منها دون ان يعلم احد موقعها فضلاً عن ان تلك البركة يحجزها عن المحاصرين خندق اصطناعي يصدّ المحاربين عن الهجوم وكانت الجنود المحاربة تضع عليها ايام القتال حجارةً فتخفيها عن الابصار

واذا وقف الزائر على قمة القلعة وسرّح الانظار فيما حوله من الآثار رأى المخازن القديمة ممتدّة في اعلى الجبل بيد انّ نوازل الايام وايدي الانام قد هدمتها فلم يبق منها الّا اطلال دائرة واحجار محطّمة . وقد يجد السائح على سفح الجبل جنوبيّ القلعة بناء من الشكل الكورنثي وحائطه الشمالي مرتفع كما كان في الاعصر الخوالي وله ثلاثة ابواب فقد سمّاهُ بعض العلماء هيكل الزهرة وظنّهُ غيرهم انه نادٍ عمومي تلتئم فيه الجموع والشيوخ ليبحثوا عن مصالح المدينة . وكان بالقرب من النادي شارع مبلّط مزيّن بالاعمدة من جهته الشرقيّة والغربيّة . وكانت القوافل ترد اليه من كل الانحاء حاملة بضائع الشرق والشمال وقد اصبحت الرَّبة محطّ القوافل المصرية والشامية في الاجيال القديمة

واذا خطا بعض الخطوات نحو الشرق وقطع الجدول عاين المرسح الشهير ويسميه الاهلون الملعب (١) . فهو كما كان من الفي سنة لم يطرأ عليه تغيير فهو روماني الاصل قيل ان بانيهُ هو ترايانوس الملك وهو اكبر المراسح الموجودة في سوريا . على ان موقعه من احسن المواقع بحيث يقي المتفرّجين من اشعّة الشمس حيناً طويلاً من

وقد يحصل فيه بابه الكبير وحائط الباب وكان على ذلك الحائط نقوش بديعة تمثل اثمار تلك البلاد كلها وحيواناها وكان طول تلك المنقوشات ستين متراً وعلوها خمسة امتار وقد منح تلك النقوش السلطان عبد الحميد لملك الالمانيين فاقتلعها الملك وحملها سنة ١٩٠٤ الى برلين عاصمتهم وهي من اجل آثار متحفهم

١) ولعلّهُ هو الذي سمّاهُ ياقوت (٣ : ٧٢٠) والمقدسي (ص ١٧٥) ملعب سليمان

النهار فضلًا عن ان الاصوات ترتفع من اسفل فلا يغيب عن الحواس حرف واحد لاسيما اذا ساد السكوت. وهذا المرسح مركَّب من ثلاث مراتب فالمرتبة الاولى لها خمسة صفوف من المقاعد . والمرتبة الوسطى فيها اربعة عشر صفًّا من المقاعد والمرتبة الثالثة فيها ستة وعشرون صفًّا من المجالس . وفي اعلى المراتب كانوا يضعون سدَّة الملك او الحاكم فكان يسود على الجميع ويقف على كل حركات الشخصين او المبارزين وهذا المرسح يجلس فيه اربعة آلاف ناظر . واذا رام احد النزول او الصعود تيسَّر له ذلك دون عناء. فانهم اقاموا في وسط المرسح طرقاً تؤدي الى درج يجدُ من وراء الملعب . وفي اسفل المرسح يعاين المرء حُجرتين كبيرتين كانتا معدَّتين لسجن الاسود والنمورة والتماسيح . وفي ساحة الملعب كان المبارزون يتصادمون امام جموع لا يُحصى لهم عدد — ولربما كانت العربات تتسابق في ذلك السهل الواسع والخيول تتبارى في ذلك الميدان

وبالقرب من المرسح يوجد بناء كبير سماه الاثريون مَغْنًى (ᾠδεῖον) وكان ذلك الملعب مخصوصاً بالنساء دون غيرهنَّ يقضينَ فيه اوقات اللهو والسرور بين الاغاني والترانيم . وقد ارتأى بعضهم ان ذلك المرسح خُصَّ بالنساء فكن يمثلن فيه ادوارهنَّ على ان الرجال كانوا يجتمعون به لسماع الروايات . وفي الجنوب مقر السكان على نواويس واسعة وقبور منحوتة في الصخر . وعلى جانب نهر عمَّان بنى الرومان حمَّاماً بقيت آثارها الى ايامنا (له بقيَّة)

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني

الالفاظ النصرانية في لغة عرب الجاهلية

كثيرًا ما كنَّا نسمع في حداثة سنّنا بانَّ اللغة العربيَّة لغة القرآن وانها كلها

اسلاميّة وقد قرأنا ذلك في بعض كتب الاوربيّين الذين لم يفقهوا الامر ورموا الكلام على عواهنه ولعلّهم قالوا ذلك لأنّ القرآن اوّل كتاب دوّنه العرب على الرقّ او الجلد او البرديّ او رقاق العظام · على انّ اللغة العربيّة سبقت الاسلام كما هو معروف ونطق بها قبائل شتى منها قبائل نصرانيّة كشفنا القناع عن دينها المسيحيّ · واثبتنا فضل النصارى في سبقهم الى الكتابة العربيّة

وليست غايتنا هنا ان نتتبّع كلّ مفردات لغتنا الشريفة فنروي ما جاء منها على ألسنة النصارى فانّ ذلك مستحيل اذ كانت العربيّة مع وفرة لهجاتها واحدةً في القبائل النصرانيّة وغيرها كما انّ لغة النصرانيّ في عهدنا لا تختلف عن لغة المسلم

ومع اقرارنا بذلك يمكننا ان نجمع عدّةً مفردات وردت في المعجمات العربيّة القديمة دخلت في اللغة بواسطة نصارى العرب لا سيّما شعرائهم · ومجموعها دليل واضح على تأثير النصرانيّة في لغة اهل الجاهليّة

وتسهيلًا لبيان الامر نروي هذه الالفاظ على حسب معانيها مباشرةً بالالفاظ الدالّة عليه تعالى وكمالاته واسمائه الحسنى

١ الاسم الكريم واسماؤهُ الحسنى في الجاهليَّة

انّ الوثنيّة كانت عمّت قبل المسيح كلّ جهات جزيرة العرب كما سبق لنا بيانهُ وشهدت عليه الآثار المتعدّدة · فان وجدنا فيها ديانة التوحيد ووصف كمالاته تعالى والفاظًا دالّة على ذلك بعد المسيح فلا بُدَّ من القول انّ العرب الذين فاهوا بها كانوا موحّدين فهم امّا يهود وامّا نصارى وعلى الاقلّ انّهم استعاروها من اولئك الموحّدين · على انّنا نعرف الجهات التي كان يسكنها اليهود في جزيرة العرب امّا النصارى فكانوا منبثّين في كلّ انحائها فيجب القول انّ هذه الالفاظ هي غالبًا للمسيحيين دون اليهود

(الله تعالى) لا مراء بانّ اسمهُ عزّ وجلّ كالاله الحقّ سبحانهُ وتعالى قد سبق عهد الاسلام وشاع في كلّ انحاء العرب وقد وجدهُ صاحب الشريعة الاسلاميّة مكرّمًا معظّمًا بين ابناء جنسهِ المكيّين فهو يكرّر اسمهُ في القرآن كالاله العظيم الذي ليس فوقهُ إله وان كان بعض منهم يشركون به آلهة غيرهُ دونهُ رتبةً

امّا اشتقاق هذا الاسم فلم يتّفق عليهِ كتبة العرب وقد زعموا غالباً انّهُ عربي الاصل وانّهُ مركّب من لفظة اله مسبوقة بال التعريف كانّهُ « الاله » اختصروه بالله. امّا علماء اللغات الساميّة فيجمعون على انَّ هـذا الاسم مشتق من اصل آرامي (ايل [illegible]) مفخّم بزيادة الهاء جاء في الكلدانيّة والسريانيّة على صورة آلّها ([illegible]) فقالوا بالعربيّة الله بلام اصليّة مفخّمة. وقد جاء الاسم الكريم في الكتابات النبطيّة والصفويّة فالنبطيّة ذكرتهُ منسوباً اليهِ كزيد الله وعبدالله وتيم الله وورد في الكتابات الصفويّة منفرداً. ولمّا كانت النصرانيّة دخلت الى بلاد العرب خصوصاً من جهات الشام وتمكّنت بين احياء النبط اطلقوا اسم الله في لهجتهم على الاله الحقّ كما شاع بين طوائف السريان ونقلوهُ في اسفار العهد القديم والحديث منذ اوائل القرن الثاني للمسيح. وخلاصة القول انَّ اسم الله دخل في جزيرة العرب بنفوذ النصرانيّة خصوصاً. وعليهِ قد تكرّر هذا الاسم الكريم في الشعر الجاهلي الذي كان معظمهُ لشعراء نصارى من قبائل نصرانيّة كربيعة وبكر واياد وغيرهم. ولا نرى حاجة الى ذكر امثلة عديدة لهذه الحقيقة لثباتها وكثرة استعمال اسم الله في الشعر الجاهلي. امّا بقيّة آلهة العرب فقلَّ ما ورد ذكرها اذ كانت الديانة الوثنيّة قد تقلّص ظلّها قبل ظهور الاسلام. ونكتفي بايراد اقوال بعضهم في الاسم الكريم على صورتيهِ « الله » او « اله » قال زيد بن عمرو (عن رواية ابن هشام):

الى الله أهدي مدحتي وثنائيا وقولًا رصيناً لا يني الدهرَ باقيا
الى الملك الاعلى الذي ليس فوقهُ إلهٌ ولا ربٌّ يكون مدانيا
رضيتُ بك اللهمّ ربًّا فلن أرى أدين إلهًا غيرك الله ثانيا

وقال الاعشى (شعراء النصرانيّة ص ٣٦٥):

وذا النُّصُب المنصوب لا تَنسُكَنَّهُ ولا تعبدِ الاوثان والله فاعبدا

وقال بعض الاياديين (كتاب البيان للجاحظ ١ : ١٩٠):

ونحن إيادٌ عبدُ الاله ورهطُ مناجيهِ في سُلَّمِ

وقال اميّة بن ابي الصلت:

إلهُ العالمين وكلّ ارضٍ وربُّ الراسيات من الجبالِ

ويقرب من اسم الاله اسم الربّ كقول ابن أوس بن حجر:

اطعنا ربّنا وعصاهُ قومٌ فذقنا طعم طاعتنا وذاقوا

(الاسماء الحسنى) يريد العرب المسلمون بالاسماء الحسنى صفاتٍ لله تعالى تدلّ على الخصّ كمالاتهِ عزّ وجلّ استخرجوها من بعض اقوال القرآن وعدّوها ٩٩ اسماً. واسماء الله لا عداد لها كما هو معروف لأنّ كمالاتهِ تعالى لا يضمّها احصاء. ومهما وُصفت بهِ الذات الالهيَّة فما تلك الاصناف الَّا نقطة من بحر. ولا نتتبَّع كلَّ اسم من هذه الاسماء وانَّما نكتفي بما هو ادلّ على جلالهِ تعالى وعظمتهِ وقدرتهِ وعلمهِ ورحمتهِ فنجدها كلّها سبقت على ألسنة اهل الجاهليَّة واذ كان الله الواحد الصمد قد عرفهُ العرب كما قلنا بواسطة الموحّدين ولا سيما النصارى وجب القول بان هذه الصفات استعارها ايضاً كتبة العرب وشعراؤهم من الدين النصرانيّ والاسفار المقدَّسة التي كان يتداولها ارباب هذا الدين

وكمالاتهُ تعالى على صنفين صنفٌ منها يعرّف الذات الالهيَّة في نفسها بقطع النظر عن المخلوقات كلّها والصنف الآخر يشعر بصفات العزَّة الالهيَّة بالنسبة الى الكائنات الخارجة عنهُ

فمن الصنف الاوَّل ما دلّ على وجودهِ تعالى الواجب وقيامتهِ بذاتهِ وجلالهِ وعلمهِ وحكمتهِ وقدرتهِ وغناه وابديَّتهِ . وكلّ هذه الصفات قد عرفها اهل الجاهليَّة من نصارى العرب واستعاروها من الاسفار المقدَّسة من العهدين القديم والحديث. فمن ذلك قول امية بن ابي الصلت يصف عظمتهُ وجلالهُ وفي كلامهِ كثير ممَّا ورد في القرآن من الاسماء الحسنى فقال (شعراء النصرانيَّة ص ٢٢٧):

لك الحمدُ والنعماء والملك ربَّنا فلا شيء اعلى منك مجداً وامجدُ
مليكٌ على عرش السماء مُهيمنٌ لعزَّتهِ تعنو الوجوهُ وتسجدُ
عليهِ حجابُ النور والنورُ حولهُ وانهار نور حولهُ تتوقَّدُ
فلا بشرٌ يسمو اليهِ بطرفهِ ودون حجاب النور خلقٌ مؤيَّدُ

ومنها في وحدانيَّتهِ وصمدانيَّتهِ وملكهِ المتعالي:

فسبحانَ من لا يعرفُ الخلقُ قدرَهُ ومن هو فوق العرش فردٌ موحَّدُ
ومن لم تنازعهُ الخلائقُ مُلكَهُ وان لم تفرِّدهُ العبادُ فمُفرَدُ
مليك السماوات الشداد وارضها وليس لشيء عن قضاهُ تأوُّدُ

وفي وحدانيَّتهِ وقدرتهِ وبقائهِ قال ورقة بن نوفل (الاغاني ٣ : ١٤)

سبحانَ ذي العرش سبحاناً يعادلهُ ربُّ البريَّة فردٌ واحدٌ صمدُ
مسخَّرٌ كلُّ ما تحت السماء لهُ لا ينبغي ان يُناوي ملكَهُ احدُ

لا شيء ممّا نرى تبقى بشاشتهُ يبقى الالهُ ويودي المالُ والولدُ

ولزيد بن عمرو في ربوبيّته وولائهِ وابديّته قولهُ (كتاب البدء والتاريخ ١ : ٦٢) وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٤٦):

ألا كلُّ شيء هالك غير ربّنا وللهِ ميراثُ الذي كان فانيا
وليٌّ لهُ من دون كلّ ولايةٍ اذا شاء لم يُمسوا جميعًا تواليا
وان يكُ شيءٌ خالدًا ومعمّرًا تأمّلْ تجدْ من فوقهِ الله باقيا
لهُ ما رأت عينُ البصير وفوقَهُ سماء الالهِ فوق سبعٍ سمائيا

فترى في كلّ هذه الابيات عددًا عديدًا من اسمائهِ عزّ وجلّ كالواحد والاحد والفرد والصّمد والاوّل والآخر والباقي والعزيز والعظيم والكبير والعليّ والمتعالي والمحتجب والماجد والمجيد والقادر والقويّ والقهّار والمقتدر والملك ومالك الملك وذي الجلال والقدّس والحقّ والعليم والحكيم والغنيّ وكلّها من اوصافهِ الدالّة على كمالاتهِ الذاتيّة. امّا الصفات الالهيّة المثبتة بالعلاقة بين الخالق والمخلوق فورد منها كثير في الشعر الجاهليّ ومصدرها كما في الصفات السابقة التعاليم النصرانيّة الشائعة في جزيرة العرب. فمن جميل ابيات اميّة بن ابي الصلت قولهُ يصف خالق البريّة (شعراء النصرانيّة ص ٢٢٨):

هو الله باري الخلق والخلقُ كلّهم اماءٌ لهُ طوعًا جميعًا واعبُدُ
وانّى يكون الخلقُ كخالقِ الذي يدومُ ويبقى والخليقة تنفدُ

ووصفهُ هناك بالمحيي المميت:

وتفنى ولا يبقى سوى الواحد الذي يُميت ويُحيي دائبًا ليس يجهَدُ

ولهُ في وصف تكوين العالم اقوال كثيرة كقولهِ في السماء (شعراء النصرانيّة ص ٢٢٦)

بناها وابتنى سبعًا شدادًا بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رجالِ
وسوّاها وزيّنها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلالِ
ومن شُهبٍ تلألأ في دُجاها مراميها اشدُّ من النصالِ
وشقَّ الارض فانبجست عيونًا وانهارًا من العَذْبِ الزُّلالِ
وبارك في نواحيها وزكّى بها ما كان من حرثٍ ومالِ

ولقسّ بن ساعدة في الخالق وغايتهِ من الخلق (شعراء النصرانيّة ص ٢١٦):

الحمدُ للهِ الذي لم يخلقِ الخلقَ عبثْ

ومثلهُ لعديّ بن زيد وسمّاهُ مسبّحًا وخلّاقًا (شعراء النصرانيّة ص ٤٥٢):

ليس شيء على المنونِ بباقٍ غيرَ وجهِ المسبّحِ الخلّاقِ

وممّا يضاف الى صفته بالخالق قول امية بن ابي الصلت (العرائس للثعلبي ص ١٥)

اذا قيل من ربُّ هذي السما فليس سواهُ لهُ ينجرب
ولو قيل ربٌّ سوى ربّنا لقال العبادُ جميعاً كَذِبْ

وسمّاهُ امية كبيرًا ومنشئًا ومُحيياً وقديرًا فقال:

مجّدوا الله وهو للمجد اهلٌ ربّنا في السماء امسى كبيرا
ذلك المنشئُ الحجارة والمو تى وأحياهم وكان قديرا

ووصفهُ قسّ بن ساعدة بالمهيمن (شعراء النصرانيّة ٢١٧):

فاعوذُ بالملك المُهَيْمَنِ عماًّ غالهُ بالبأساء والنحسِ

ونعتهُ امية ابن ابي الصلت بالسّليطط والمقتدر فقال:

انّ الانام رعايا اللهِ كلّهمُ انّ السّليططَ فوقَ الارض مقتدرُ

وسمّاهُ الكريم فقال:

ثمّ يجلو النهار ربٌّ كريمٌ بمهاةٍ شعاعُها منشورُ

وقال اعشى قيس:

ربّي كريمٌ لا يكدّرُ نعمةً فاذا تُنوشد في المهارق انشدا

وخصّهُ زهير بن ابي سلمى بمراقبة الاعمال والانتقام لها في معاقبته:

فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في صدوركم ليَخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ
يؤخَّر فيوضع في كتاب فيُدَّخر ليوم الحساب او يعجّل فيُنقمِ

ووصفوهُ بالرحمان والرحيم. قال الاعشى (شعراء النصرانيّة ص ٣٩١):

فلئنْ ربُّك من رحمتهِ كشف الضيقة عنّا وفسَحْ

وقال المثقّب العبدي (شعراء النصرانيّة ص ٤١٥):

لبى الرّحمانُ انواماً اضاعوا على الوعواع افراسي وعيسي

وقال سلامة بن جندل يصفهُ بالرحمان والجابر والجامع (اطلب طبعتنا ص ١٩)

عجلتم علينا حجّتين عليكمُ وما يشأِ الرحمانُ يَعقد ويُطلقِ
هو الجابرُ العظمِ الكسيرِ وما يشأ من الامر يجمع بينهُ ويفرّقِ

ويروى: «هو الكاسرُ العظمِ الامينِ». ووصفهُ زيد بن عمرو بالرحمان والغفور فقال (الاغاني ١٣: ١٦):

أربًا واحدًا ام الفَ ربٍّ اَدينُ اذا تقسّمت الامورُ

ولكن اعبدُ الرحمانَ ربّي ليغفر ذنبي الربُّ الغفورُ

ودعاهُ الورقة بن نوفل بالسميع المجيب فقال (الاغاني ٣ : ١٦) :

ادينُ لربٍّ يستجيبُ ولا ارى ادينُ لمن لا يسمعُ الدهرَ واعيا

اقول اذا صلّيتُ في كلّ بيعةٍ تباركتَ قد أكثرتُ باسمك داعيا

فهذه الاسماء كلّها من صفات الله تبارك وتعالى تثبت جليًّا بان اهل الجاهليّة المتنوّرين لم يَفُتهم شيءٌ من معرفة الاله الحقّ (له بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

P. Paul Cheneau et Pétraqui Khayat : Ma première année de Français. *Jérusalem*, 1912. p. 171

اوّل سنة لدرس اللغة الفرنسويّة

انّ اقبال اهل هذه البلاد على درس اللغة الفرنسويّة حدا بكثيرين من الاساتذة الى نشر الكتب المدرسيّة المسهّلة للطلبة معرفة قواعدها . ومن احسن ما وُضع لهذه الغاية كتاب جديد جمع فيه حضرة الاب بولس شِنو وجناب الاديب بتراكي خيّاط اصول تلك اللغة الشريفة على طريقة واضحة سهلة جدًّا في ٥٢ درساً ويشتمل كلّ درس معجماً لبعض الالفاظ ثمّ قواعد قليلة يليها تمرينات شتّى من العربيّة الى الفرنسويّة ومن هذه الى تلك وفي آخر الكتاب جدول لكلّ الالفاظ المشروحة بحيث يستغني الدارس عن مصنّفات أخرى مدّة سنة كاملة فنحضّ ارباب المدارس على اتخاذ هذا الكتاب لمدارسهم وهو متقن الطبع في مطبعة الآباء الفرنسيسيين في القدس الشريف ل . ش .

صحائف واجبات خدمة الرعايا

لسيادة المطران بولس عريضة رئيس اساقفة طرابلس

طبعت في طرابلس في مطبعة النجاح

نعم المشروع تولّاهُ السيّد الجليل بولس عريضة رئيس اساقفة طرابلس لفائدة اكليروسه . وذلك ان سيادته جمع في عشر صفائح مختلفة الاقدار معظم واجبات كهنة الرعايا بحيث يستطيعون بكل سهولة ان يذكروا خلاصة اللاهوت الادبيّ

الذي درسوهُ قبل الكهنوت ولا شكّ في ان كل اساقفة الطوائف يستصوبون هذا العمل ويسعون في الاقتداء بهِ لكثرة فوائده . فانَّ خادم الرعيَّة بلمحة العين يمكنهُ الوقوف على واجباتهِ الكهنوتيَّة لا سيَّا في منح الاسرار المقدَّسة . ودونك جدول هذه الصحائف فترى مـا تحتويه من المعلومات : ١ صحيفة كبيرة في اخصّ واجبات خدمة الرعايا في نظام حياتهم وفي خدمتهم للرعيَّة مع بيان المحظورات عليهم . ٢ صحيفة في واجباتهم عند منح سرّي المعموديَّة والتوبة . ٣ صحيفة في واجباتهم عند منح الاسقف سرّ التثبيت . ٤–٥ صحيفتان في واجبات الخوارنة فيا يختصّ بسرّ الافخارستيّا والقداس مع اعلام في نظام القداس. ٦–٧ صحيفتان في نظام اخصّ واجبات للعرف وفي الحوادث المحفوظة للسيّد البطريرك وللاساقفة. ٨–٩ صحيفتان في واجبات خدمة الرعايا في ترويج العرسان وفي الموانع المبطلة او المانعة للزواج وفي مسوّغات التفسيحات للموانع. ١٠ صحيفة في واجباتهم في منح سرّ المسحة وفي الصلاة على الموتى ودفنهم

انفاس الطلَّاب في مضمار الكتَّاب

انتخبها المنسنيور بطرس حبيقة من كتابات تلامذة مدرسة القديس بطرس
الجزء الثاني . طُبع في المطبعة اللبنانيَّة بمرعو بيروت سنة ١٩١٣ (ص ١٥٠)

لا شيء ينشّط طلَّاب المدارس كنشر باكورة ما انتجتهُ قرائحهم . وكانّي بهذه الزهور الادبيَّة تزيد نضارةً وعبيرًا اذا جناها الجاني في مشارف لبنان حيث التربة اكرم والهواء اصفى ولا سيما اذا كان الجاني هو الذي عُني بزرع تلك الاغراس فسقاها بعرق جبينهِ واهتمّ بنموّها وراقب ازدهارها . فنهنّئ البستانيّ بطيب جناه ونطلب من الله ان يجعل تلك الحديقة النضرة طبق مرام راعيها واساتذتها الافاضل الذين آزروهُ في عملهِ الشريف ل . ش

الزهرات . للاستاذ يوسف افندي الفاخوري

الجزء الاوّل . طُبع على نفقة نخبة من تلامذتهِ القدماء
في المطبعة الكاثوليكيَّة بيروت سنة ١٩١٣ (ص ١٣٨)

كما عُني المنسنيور بطرس حبيقة بنشر منشاءات طلبة مدرستهِ كذلك سعى بعض نجباء طلبة كليتنا الاقدمين بنشر مقالات استاذهم المحبوب جناب يوسف

افندي القاخوري فاعربوا بفعلهم عمّا تكنّهُ صدورهم من الشكر لمن اوقف نفسهُ لتعليمهم. والزهرات عبارة عن نحو ٣٠ قطعة منها خطب ومنها مقالات واوصاف شتى وقصائد حسنة للاستاذ المومأ اليه كان تلامذته اودعوها ذاكرتهم فارادوا ان ينتفع منها غيرهم من محبي الأدب لا سيما الاحداث . فنهنئ التلامذة بعملهم كما نهنئ الاستاذ بتلامذته

ل . ش

شَذَرَاتٌ

❊ الكلمة الامركانية ❊ لبث مجلّة الكلمة الأرثذكسية الكثلكة بـهاما الطائشة . كانت في العام الماضي (١٩١٢ ص ٤٨) عند نشوب الحرب الايطالية التركيَّة روت انَّ الحبر الاعظم والاكليروس البابوي اعتبروا تلك الحرب « كحملة صليبيَّة جديدة ضدّ اعداء المسيحيَّة » فبيَّنا في المشرق (١٥ : ٢٢٣) كذب هذه الاشاعة التي نشرتها الجرائد المعادية للكثلكة لتغري المسلمين بمواطنيهم الكاثوليك .

وها ان الكلمة تضرب اليوم على طنبور آخر ففي عددها الاوَّل من السنة الحاليَّة نشرت مقالة مفعمة بغضاً تهيّج فيها هذه المرَّة الحكومات البلقانيَّة واصحابها الارثوذكس على البابويَّة . والمقالة للسيّد رفائيل الحوارويني المعروف بخطته المعتدلة (!) هذا عنوانها (ص ٣٢) « البابويَّة بإزاء انتصارات شعوب البلقان المسيحيَّة الارثوذكسيَّة على أمة الاتراك الاسلاميَّة » فزعم فيها انَّ الحرب البلقانيَّة هي حرب صليبيَّة وانَّ الحبر الاعظم خوفاً على الكثلكة من غلبة الشاقين (كذا) سعى لدى الدول ان تتداخل وتضع حدًّا لمطالب المالك الارثوذكسيَّة وانَّ « اعوانهُ لا يكفُّون من الكرز والتبشير قولًا وفعلًا بمحالفة التاج الباباوي مع الهلال الاسلاميّ ضدّ الصليب » (كذا ص ٣٥) . وكلّ يعرف ان قداسة بيوس العاشر في هذه الحرب البلقانية كما في الحرب الايطاليَّة لزم سياسة الحياد التامّ ولم يَفُه بكلمة واحدة تشير الى تفضيله امَّة على أمة . ولئن كان بعض الكاثوليك في اوربَّة كتبوا مقالات يفضلون فيها اعتدال الاتراك مع الكاثوليك على تطرُّف بعض ارباب الامر في البلقان كتب غيرهم كثيرون مقالات أخرى لا تُحصى اظهروا فيها موالاتهم للامم البلقانيَّة .

فهذا هو انصاف الكلمة التي تنث في كلّ عدد من اعدادها سمّها الذعاف ولا تبالي بتناقض اقوالها. اصلحها الله وهدى كَتَبَتها المتقادين للهوى —

❊ فكاهة هلاليّة ❊ في عدد مجلّة الهلال الاخير فبراير ١٩١٣ (ص ٢٩٨–٣٠١) مقالة تحت امضاء ا. ز (اميل زيدان) عنوانها العمر والتعمير ورد فيها عدّة مزاعم لا صحّة لها بناها على اساس واهٍ وافتتحها بذكر حبّة القمح التي «وجدوها في نواويس الفراعنة فجرّبوا زرعها ونمت» وهو حادث كذّبهُ العلماء بعد انتشار روايتهِ مرارًا فنتعجّب من ا. ز انهُ عاد الى هذه الخرافة. ومن فكاهات هذه المقالة باب عنوانهُ «نحن وآباؤنا» سعى فيهِ ان يبيّن ان معدّل العمر في عهدنا قد زاد فصار بين اربعين الى ٤٥ سنة بعد ان كان ٢٨ سنة في فرنسة قبل الثورة الفرنسويّة فصار بعدها ٣٢ من السنة ١٨٠٠ الى ١٨٢٥ وهو اليوم ٤٦. وهي اقوال تحتاج الى ملحوظات متعدّدة لا يسعنا هنا ايضاحها ويُستنتَج منها غير ما اراد الكاتب كأنّ الثورة الفرنسويّة وما تبعها من الفتن والفوضى مدّنت الفرنسويّين وزادت في عمرهم !!!. وممّا اثبتهُ هناك من المبكيات المضحكات قولهُ (ص ٣٠١):

وفي القرون الوسطى انحطّت الاسباب الصحية وزادت الوفيات زيادة فاحشة (كذا) ولا غرو ففي تلك القرون انحطّت سائر احوال الجنس البشري (كذا) فكانت الامراض الوبائيّة تنتشر فيهم ويتركون الامر لعناية الله (؟؟) ويفضّلون الصلاة على العناية بانفسهم (كذا) ولو عقلوا لسعوا في اصلاح حالتهم من غير ان ينتظروا الاعجوبة من عند الله. فالسماء لا تعين من لا يعين نفسهُ. وممّا يروى عن تلك الايّام انّ الناس اهملوا اجسادهم وتفرّغوا للاعمال الروحية (زه! زه!) لدرجة انّ احد آباء الكنيسة كتب مرّةً الى فتاة ينصحها بان لا تستحمّ ابدًا لئلا توجّه التفاتًا الى امور هذه الدنيا

فما اظرف هذا الكلام من فيك يا ا. ز أَنك لقد عرفت من اين توكّل الكتف فانّ صلاة اهل القرون الوسطى واهتمامهم بالروحيّات ذلك ما افسد امزجتهم وعرّضهم للوفيات ! . فنرجوك أيّها الطبيب النطاسيّ ان تروي لنا كيف اكتشفت هذه الميزانيّة في حياة اهل القرون الوسطى وان تثبت لنا احصاءات العلماء في ذلك العهد لتؤيّد زعمك. كأنك نسيت انّ الحروب الطاحنة في القرون الوسطى هي التي فتكت باعمار كثيرٍ من البشر. وكأنّكَ لا تعلم ان الاوبئة التي ظهرت في تلك الايام كالطاعون الاسود كان اذرع فتكاً منهُ في القرون المتأخرة ونحن نرى ايضاً

مفاعيله السيئة في زمننا رغماً عن كلّ اكتشافات المحدثين للمصول الواقية وغيرها · وكأنك تجهل انّ في كلّ عهد اطول الناس اعمارًا انّما كانوا الرهبان المنقطعين الى الزهد وخدمة الله· وكأنك. . . وكأنك. . . ولولا علمنا بأنك نقلت ما كتبت عن تآليف بعض المتشدقين لما بسطنا لك عذرًا وانّما نأسف على انّ كاتباً عاقلاً ينقل مثل هذه السفاسف ونأسف على مجلةٍ كالهلال تسوّد صفحاتها بتدوينها لها فليتحقق ا·ز ان «الروحيات» التي تقصِر العمر ليست الروحيّات الدينيّة بل الروحيّات المسكرة

كتاب الدلالة اللامعة ونسبتهُ الى السيّد افتيميوس صيفي — رأيت في العدد السابق احتجاج حضرة الخوري قسطنطين الباشا وادلّتهُ لاثبات حقيقة نسبة كتاب الدلالة اللامعة الى السيّد افتيميوس صيفي · وقد ذيّلنا مقالتهُ ببعض انتقادات تضعف نوعاً تلك الدلائل · لكنّ حضرة القس جرجس منش ارسل لنا ملحوظات أخرى يُغلّب فيها رأيهُ على رأي مناظرهِ نقتطف منها اظهرها بياناً

١ً يرى حضرة القس منش مثلاً انّ شهادة الاب بطرس فروماج (ص ١٠٥–١٠٦) عن نسبة كتاب الدلالة اللامعة الى الاب ميخائيل تو لا تزال ثابتة وانّ حضرة الاب ق· الباشا لم يُحسن تنفيدها

٢ً انّ شهادة الخوري ميخائيل بريك المرويّة هناك (ص ١٠٨) ليست مرويّة بتمامها وهذا نصّها بالحرف الواحد (ص ١٠١ من الطبعة المصريّة):

«وفي ايام ثاوفيطوس هذا توفي افتيميوس مطران صيدا وهو اوّل من تبع الاراتيس (يريد الدين الكاثوليكي) التي نشأت لذلك العهد وخبرهُ مشهور عند الجميع وكان لافتيميوس ابن اخت يقال لهُ سرافيم وكان قد جعلهُ قسّاً عندهُ وهو على معتقد خالهِ متمسكاً بهِ وقد كتب في ذلك كتاباً سمّاهُ الدلالة اللامعة»

فيحصل من هذا القول انّ كاتب الدلالة اللامعة ليس هو افتيميوس صيفي بل ابن اختهِ سرافيم (١

٣ً ومن الغريب انّ معاصري افتيميوس كانوا يجهلون انّ كتاب الدلالة

(١ عندنا نسخة خطيّة من تاريخ ميخائيل بريك في نصّها المذكور بعض اختلاف يرجح رأي حضرة الخوري ق · الباشا : وهذا حرفهُ (ص ١٧) : هذا (أي افتيميوس) كان لهُ ابن اخت اسمهُ سيرافيم وسامهُ قسّ عندهُ وكان اعتقاده كمثل خاله أنّما ذلك سرًّا ليس جهرًا كما انّ خالهُ الان حرمهُ (حرّمهُ) ان يتمسك في البابوية (البابويين) وصنع لهُ كتاباً ولقبهُ الدلالة اللامعة والاليق ما يقال «الضلالة المظلمة» (المشرق)

اللامعة من تاليفهِ فانَّ مثل الحوري حنّا الحورانيّ الفاخر بانتمائهِ الى اقتيميوس تراهُ في رسائله التي وجّهها اليهِ في السنة ١٧٢١ يطيل لسان الثناء عليهِ والتلطّف بهِ والاعتذار اليهِ وانّما يقتصر عند ذكرهِ «كتاب الدلالة» على ارسال نسخة منهُ الى ابن اختهِ ناصر ومباهاة هذا بها . وهذه الرسالة قد نشرها الاب باشا نفسهُ في مجلة المسرَّة (٣ : ١٨-٢٢) أفما كان الاولى والامثل بالحوري ان يثني ما شاء على المطران كتأليفهِ الدلالة دون كلّ شيء . سواها فيما لو كان معروفاً انَّها من تأليفهِ حقيقةً . وفي ذلك من الخطورة ما لا يعزب عن احد

٤ً واما ما تناولهُ حضرة الاب عن كتاب التختيكون الكنسي وجملة عمدة ادلتهِ وشواهدهِ فقد اضعفهُ حضرته من حيث لايدري بدعواهُ ان صاحب التختيكون «اخذهُ عن القول الشائع» فاذا كان مؤلفهُ الاب يوحنا العجيمي اخذ قولهُ بالسماع سواء كان من تلاميذ اقتيميوس ام من سواهم ... فهو بالطبع لم يتثبت في صحة ذلك المسموع كما يظهر بادنى تأمل

٥ً ثمَّ زاد حضرة القس ج . منش شهادةً اخرى على ما اوردهُ في المشرق (١٠ : ٥٧٥) وهي شهادة الاب انطون وتتودي المرسل اليسوعي حيث يوجه كلامه الى الياس فخر وينسب اليهِ الدلالة اللامعة قال ما نصّهُ:

«تذكَّر يا الياس انك انت بالصواب ودلايل مقنعة قد اثبت سابقاً حقيقة ايماننا (ايماننا) ومكمنة (وحكمت) على كل من لا يعتقد بما انهُ رجل اراتيكي ولقد كنت حينئذٍ شيء حسناً فمن ذا الذي سحرك ورجَّعك الى طريق الضلال . انك قد اوردت انت سبب ذلك الرجل معتبر من طائفتك يشهد هو مع رجل آخر مثلهُ ذو (؟) شرف امام حضرة قنصلنا على سبيل الشريعة اذا احتاج الامر وهي انهُ لما كنت في بيت احد هذين الشخصين وسألت صاحب المنزل عن الشهادات الموردة منك في كتاب الدلالة اللامعة لاثبات حق تمام الكرسي الرسولي وحق ضلال الروم هل هي صحيحة ام لا؟ فاجبتهُ حالاً قائلاً: اي نعم انها كلها صحيحة حقيقةً . فقال لك ذلك (الرجل): فلماذا اذاً تتكلم الآن ضد الحق الواضح المعروف منك؟ فما كان جوابك لهُ سوى انك وضعت حينئذٍ اصبعك في فمك ثم اخرجتها لاحساً اياها قائلاً: ما بدي اكل. مشيراً بذلك الى انك انما تاقف على الحق المعروف منك لتربح خبزاً زمنياً ..» اه من الرسالة الجدلية التي اجاب بها الاب انطون وتتودي مزاعم ابن الفخر في بتولية القديس يوسف والرئاسة البطرسية

(المشرق) يرى القرّاء انَّ الشواهد ليست بكافية لأن تقطع حجة نسبة

كتاب الدلالة اللامعة الى السيّد انتيموس صيفي . فعلى كلّ فريق ان يرتأي في ذلك ما يشاء . وبهِ الكفاية

❊ ابن المحبّة وابن المحجّة ❊ قد خصّت الكنيسة الكاثوليكيّة بمحبّتها كل الاسقام لتعالجها وكلّ العاهات لتبرئها او تلطّفها ومن جملتها ذاك الداء العياء الذي يشوّه بشرة الانسان ويفني حياتهُ نقطةً نقطةً دون انقطاع نريد بهِ البَرَص الذي ذكرنا في المشرق (٥: ٥١٤-٥١٦) مشروعات الكنيسة في علاجهِ لمّا زيّفنا مزاعم جريدة النار الاورثذكسيّة . وذكرنا هناك شهيد حبّهِ في خدمة البُرص الاب داميان البلجكيّ في جزائر ملوكاي الذي اجمع كلّ العالم التمدّن على اطراء تفانيهِ . وليس مثل الاب داميان شيئاً منفردًا فانّ مستشفيات البُرص التي يديرها المرسلون الكاثوليك في عهدنا تنيف على العشرة منها ثلاثة مستشفيات يديرها الآباء اليسوعيّون في جزيرة مدغسكر وفي حاضرة بمباي في الهند وفي الصين . ومما روتهُ مؤخّرًا انباء الصين انّ مرسلي الرسالات الاجنبيّة في مقاطعة كوانغ سي كانوا منذ بضعة اعوام يحنّون الى مـا هنالك من البُرص الذين يتضوّرون جوعاً ولا يشفق عليهم احد من ابناء جنسهم الوثنيين . ففي السنة ١٩١٠ امكن المرسلين ان يقتنوا ملكاً واسعاً في جوار مدينة نان ننغ (Nan-ning) فأخذوا في تشييد مستشفى واسع ليؤوا اولئك البائسين الذين يقضون حياتهم خارجاً عن المدن بين الادغال والشجر . فلمّا كاد ينتهي البناء ذهب رئيس المرسلين الى حاكم البلد الجنرال « لو يُنغ تنغ » وانبأهُ ما عزلوا عليهِ من اعانة البُرص لئلا يصيروا عبئاً على السكّان فاثنى على مروءتهم ووعدهم بالمساعدة . ولمّا قرب وقت فتح المستشفى اذ علموا في صباح اليوم ١٤ من ك ١ المنصرم انّ الجنرال المذكور ارسل فريقاً من الجند فاحاطوا بالادغال حيث كان اولئك المنكودو الحظّ واضطرّوهم الى ان ينحدروا الى خنادق المدينة ثمّ اخذوا يطلقون عليهم بندقيّاتهم حتى قتلوهم كلّهم في عدد ٣٩ ابرص ثمّ جمعوا عليهم الحطب ورشّوا عليهِ البترول واوقدوهُ وكان هناك قوم من الوثنيين اجتمعوا من المدينة فلم يرقّ قلب واحد منهم على اولئك المساكين . امّا الجنرال فنشر منشورًا ادّعى فيهِ انّ البُرص اعداء الجنس الانساني وانّ السماء لم يبتليهم بتلك البلوى الّا لآثامهم فمساعدتهم هي جناية في حقّ الدين . فليحكم الحكم ابن المحبّة

وابن المسيحيَّة. وبينما نحن نسطّر هذه النبذة اذ بلغنا خبر وفاة ابوين يسوعيين ماتا في مدغسكر في خدمة البُرص اسمهما الاب جان بيزيم (Jean Beyzim) المولود في بلاد پولونيا سنة ١٨٥٠ فطلب من الرؤساء ان يقف نفسهُ في خدمة المصابين بالبَرص فتفانى في علاجهم عشر سنوات في مستشفى مارانا (Marana) الذي انشأهُ لهذه الغاية سنة ١٩٠١ فكانت حياتهُ بين البُرص كحياة احنّ الأمهات بين اولادها توفّي في رائحة القداسة في ٢ ت ١ ١٩١٢. وبعدهُ بعشرة ايام استأثر الله برسل آخر في ذلك المستشفى عينهِ الاب ازيدور دوپوي (Isidore Dupuy) احد ابطال الرسالة الكاثوليكيَّة في مدغسكار الذي كانت جازتهُ الدولة الفرنسويَّة فاهدتهُ وسام شرفها اي صليب اللجيون دونور لخدمهِ المتواصلة للحالة الفرنسويَّة سنة ١٨٩٥ واذ خدم مدةً المصابين بالبَرص أُصيب هو ايضاً بدائهم فتناثرت لحمانهُ بذلك الرض العضال مدةَ سنتين حتى قضى حياتهُ بين الاوجاع شاكرًا لله على تلك النعمة التي فضّلها على كلّ الامتيازات البشريَّة فكان يقول انَّ الله جعلني كافليار البرص

تعدُّد الآلهة سأل محمود افندي الناظر من امّ دومة (في مصر) صاحبي المقتطف الدكتورين في الفلسفة السؤال الآتي: «كان قدماء اليونان يقولون بتعدُّد الالهة فيقولون انَّ للجمال الهًا وللنور الهًا وللحرب الهًا فكيف ذلك مع انهُ كان فيهم فلاسفة مفكرون». فكان جواب منشئي المقتطف (يناير ١٩١٣ ص ٩٣) ما حرفهُ:

ج. يظهر لنا انَّ التفكير وحدهُ لا يكفي للوصول الى عقيدة التوحيد. فاذا لم تكن هذه العقيدة قد وصلت الى الناس بالهام الهيّ فيكون وصول بعضهم اليها تحكّم لا موجب لهُ لانهُ كما يصحّ عقلًا ان يكون في العالم اله واحد يصحّ ان يكون فيهِ الهان او ثلاثة او اكثر. سمعنا مرةً عالمًا من اكبر العلماء (؟) يبرهن على وجوب وحدة الخالق بقولهِ: اذا وجد في العالم الهان فيستحيل ان يكونا متساويين في كلّ شيء واذا اختلفا في القوَّة تغلَّب احدهما على الآخر ولاشاهُ فيبقى اله واحد. فقلنا لهُ: كيف تثبت المقدِّمة الاولى وهي قولك: انَّهُ يستحيل ان يكونا متساويين في كل شيء. لأنَّنا لا نراه من البديهيات. فاستغرب ذلك منَّا وقال: هاتوا لي شيئين متساويين. فقلنا لهُ انَّ الجوهر الواحد من الذهب او الفضَّة يماثل الجوهر الآخر وهب إنهما مختلفين (كذا) فاحدهما لا يلاشي الآخر. فوجم كأنَّ هذا المثل لم يخطر على بالهِ قبلًا. ولذلك يرجّح علماء الاديان الآن انَّ عقيدة التوحيد وصلت الى الناس بالهام الهيّ

هذا ما قالهُ الدكتوران في الفلسفة وهو في الترابة بمكان. واغرب منهُ الجاءهما

لذلك « العالم من اكبر العلماء » . ونحن نقترح على احد صغار فلاسفتنا الجواب الحقّ على هذه الاقوال السفسطيّة

احتجاج باطل — نشرت جريدتنا الحارس (في عددها ٣٢٧) ودليل الحمص (ع ٧١) رسالةً تحت امضاء « سليم سامي جقي معلم المدرسة السريانيّة بحماة » ردّ فيها على ما كتبهُ المشرق ونشرتهُ جريدة البشير في امر السريان اليعاقبة في حماة وبطريركهم عبدالله الصددي فدعا قول كاتب المقالة افتراء . فكان (اوّل) ما انكر على صاحب هذه المقالة انهُ سمّى الأمة السريانيّة القديمة باليعاقبة . فاخذنا العجب من هذا الاحتجاج الغريب فنكر ما هو اوضح من النهار وإنْ سألت ايَّ رجلٍ شئت في الشام وما بين النهرين والعراق من هم اليعاقبة لم يخطئ الفرد الواحد في الدلالة عليهم بل اعجب العجب أنهُ ينكر الاسم الوحيد الذي عرفوا به وان فضل سليم افندي سامي جقي ان يدعوهم بالسريان العتق فهو مخير في ذلك لأننا نعلم انّ عتق تلك الطائفة هو البلى بعينهِ — ثمّ احتجّ (ثانياً) على تنويه حضرة كاتب المقالة بارتداد بعض اولئك اليعاقبة الى الكثالكة وان شئت قُلْ اولئك العُتق الى الجدد واولئك الضالين الى الهدى . ومن العجب انهُ مع احتجاجهِ يقرّ بارتداد « شيعة قليلة العدد » ثمّ « بانحياز البعض مع قسيسهم » وان نسب ترك مذهبهم القديم الى نتيجة انفعالات طائفيّة وضغائن نفسانيّة » . فاقرّ من حيث لا يدري بصحّة قول كاتبنا امّا كلامهُ عن النيّات فندع الامر لله الذي يعرف وحدهُ اسرار القلوب — واحتجّ (ثالثاً) واخيراً على ما قيل في « سوء تصرّف بطريرك السريان العتق وقلّة اكتراثه للدين » ويا ليت الامر لم يكن كما قالهُ كاتبنا . فليفدنا سليم افندي سامي جقي بايّ صفة نعت تصرّف رجل عدل عن مذهبهِ وجاهر بمعتقد السريان الكاثوليك مدّة خمس عشرة سنة واكل خبزهم وانتفع بحسناتهم وجمع في رومية وفرنسة مالاً وافراً باسمهم ثمّ نكص على عقبيهِ راجعاً الى مذهبهِ الاوّل كأنّ الدين ثوبٌ يُلبَس اليوم ويُنزَع غداً . فلا مناص من احد امرين امّا انهُ دان بالكثالكة رياء بغير اعتقاد وهو عارٌ عليهِ وامّا انهُ صدق باعتقادهِ فعودهُ الى مذهبهِ العتيق لمطامع ذميمة عار اعظم واقبح . فان كان هذا ليس بسوء التصرّف فترى ماذا يكون ؟ ثمّ انّ البطريرك بعد جحودهِ للايمان الكاثوليكي سافر الى انكلترة

وتقرّب من الشيع البروتستانيّة ورحل الى الهند طمعاً بالمال كما نقلتهُ الجرائد ثمَّ دار على ابرشيّات السريان التي فحص بنفسهِ كثيراً من مداخيلها حتى نفر منهُ كثير من اساقفتها واتّحد السيّد بطرس اسقف صدد بكنيسة الروم الارثوذكس في حمص بحيث طنطنت مجلّة الكلمة باهتدائهِ الى الاورثوذكسيّة (الكلمة السنة الثامنة ص ٣٠٥) وعدل اثنان غيرهُ الى الكنيسة الكاثوليكيّة اعني السيّدين اسقف القدس الشريف واسقف حمص وكلاهما يصرّح بما ألحق بهما البطريرك من بخس حقوقهما . افهذا كلّهُ لا يستحقّ ان يوصف بسوء التصرّف . فما كان أحرى بسليم افندي سامي الجبّي ان يلزم الصمت ولا يحوجنا الى ذكر كلّ ذلك سامحهُ الله

اسئلة واجوبة

س سألنا احد موارنة الثغر متى تكون مناولة الشعب في القداس على حسب الطقس الماروني

مناولة الشعب في الطقس الماروني

ج قد نصَّ على ذلك كتاب القداس المارونيّ في مقدّماته (راجع ايضاً كتاب منارة الاقداس للدريعي) حيث يقول انَّ الكاهن بعد ان يتناول جزء القربان الكبير وقليلاً من الدم وبعد ترتيب الصينيّة والكاس يجب عليه ان ينظر ايريد احد من الشعب ان يتناول الاسرار فينحدر الى الدرابزين ويناوله واذا انتهى من مناولات الشعب يتناول ما بقي من الجسد والدم

س وسأل آخر هل ابطل الحبر الاعظم وجوب المناولة الفصحيّة في كنيسة الرعيّة برقيمه الاخير الذي سمح فيه للرهبان ان يوزعوا للمؤمنين القربان في كنيستهم يوم عيد الفصح

المناولة الفصحيّة

ج كلّا لم يبطلها قداستهُ لأنّهُ ليس من الواجب ان تكون هذه المناولة يوم الفصح اي احد القيامة بل في احد الايام المعيّنة لذلك الممتدّة عادةً من احد الشعانين الى احد الثالوث الاقدس عند اللاتين والى الاحد الجديد عند الشرقيين فمن ألِف عادة المناولة اليومية يستطيع ان يختار ايَّ يوم شاء للمناولة الفصحيّة في كنيسته ل.ش